الباب الأول

■ نبـــذة عن تطور الطب على أيدي أطباء الحضارة العربية الإسلامية

الباب الأول:

الفصل الأول
صفحات من تاريخ الطب لدى الأمم السابقة
طب ما قبل التاريخ (الطب يحبو)

بظهور الحياة على الأرض ظهرت الأمراض، قدمها قدم الحياة نفسها. فكل أنواع الحياة من نبات وحيوان -العليا منها أوالدنيا- تتكاثر وتتغذى وتنمو وتهرم وتمرض وتموت.

وقد أثبتت حفريات العظام التي وصلتنا لحيوانات عاشت ملايين السنين قبل ظهور الإنسان على كوكب الأرض، أنها مرضت بأمراض معروفة لنا اليوم. كما أن لدى العلماء إثباتات بوجود البكتيريا على الأرض منذ خمسة ملايين عام قبل وجود الإنسان[1].

وعندما ظهر الإنسان الأول، تعرض هو و خلفاؤه للأمراض مثلما تعرضت لها بقية الأحياء. ومن حفريات عظامه تعرفنا على أمراض أصيب بها ولا يزال أحفاده يتعرضون لها، ولكون مجمل هذه الحفريات من العظام فلم يكن التعرف إلا على أمراضها ليس غير.

فقط عن طريق موميـاءات قدماء المصريين استطعنا أن نتعرف على الأمراض التي تصيب بقية الجسم أيضاً وليس العظام فقط، وقد وجد أنها لا

تختلف عن الأمراض المعروفة في عصرنا الحديث. فبفحص مومياء عمرها ثلاثة آلاف وخمسمئة عام، أمكن التعرف على إصابتها بخراجات متعددة في الكلى Gram negative bacilli [٢]، ومومياء أخرى وجدت أنها مصابة بدرن في عظام فقرات الظهر.

تعامل الإنسان مع الصحة والمرض:

منذ أن ظهر الإنسان على وجه الأرض وهو يحاول أن يواجه هذه الأمراض التي تهدده وتهدد أحباءه وحيواناته المستأنسة، وتعامل معها على هذا الأساس. وللأسف الشديد أن الإنسان البدائي في تلك الحقبة لم تكن له القدرة على التدوين؛ لذا لم تصل إلينا مكنونات هذا التعامل. ولكن من دراسة عادات وتقاليد وتعاملات بعض القبائل البدائية في عصرنا الحالي التي عاشت منعزلة ولم تتطور منذ العصر الحجري، أمكن التعرف على بعض طرق تفكيرهم عن الأمراض وطرق علاجها. ونجد أن الإنسان البدائي تعامل معها على أساسين:

أولهما غيبي:

حيث تعامل مع الأمراض مثل تعامله مع كل ظواهر الطبيعة التي واجهته وهددت حياته من برق ورعد ومطر وفيضانات وريح وزلازل وغيرها من الظواهر، فأرجعها إلى قوى خفية من أرواح شريرة، وأرواح أجداد غير راضية أو إلى الشمس والقمر والنجوم أو إلى السحر.

اعتبروا المرض: روحاً شريرة تعاقب، أو قمراً غاضباً على المريض لتقربه من الشمس، وغير ذلك؛ فلذا حاولوا أن يتجنبوا المرض بتقديم القرابين، والتوجه إلى

الأرواح أو النجوم أو الكواكب بطلب الشفاء، وحملوا التعاويذ والتمائم المصنوعة من مواد مختلفة مثل المرجان والأحجار الكريمة. وتوجهوا إلى ساحر القبيلة أو رئيسها أو كاهنها ليساعدهم في التغلب على المرض أو يحميهم منه فظهر لنا الكاهن الطبيب والساحر الطبيب، وهذا النمط من التفكير هو الذي أدى إلى ظهور الشعوذة والشعبذة وقد استمر عبر الأزمان والبلدان إلى عصرنا الحديث.

وثانيهما واقعي:

فقد لاحظ الإنسان البدائي عن طريق المحاولة والخطأ أن بعض المواد سواء من أصل نباتي أو حيواني أو معدني، أو بعض السوائل تساعده في الشفاء من بعض الأمراض، وبعضها يحميه منها بدون أن يعرف كيف يتم ذلك وبدون أن يحاول البحث عن هذه الكيفية -في تلك الحقبة على الأقل-، وأورثها لخلفائه فتجمع مع الوقت موروث ضخم من المعرفة بالمواد ذات القدرات الشفائية. وبنفس النمط من التفكير تعرف الإنسان البدائي على استعمال يده في علاج بعض الأمراض أو الجروح. فمن بعض الجماجم والعظام التي وصلت إلى عصرنا من العصر الحجري، أمكن التعرف على بعض الأعمال اليدوية بغرض الشفاء. فقد وجدت بعض الجماجم مثقوبة بطريقة فنية[٣]، وليس معروف سبب عملهم ذلك أهو من أجل إخراج الأرواح أو من أجل معالجة كسر في الجمجمة؟ وكذلك في بعض الجماجم وجدت آثار للكي.

ومن المؤكد أن هناك أفراداً برزوا في هذا المجال سواء في استعمال المواد أو في استعمال اليد في علاج ومقاومة الأمراض.

ومن هذا النمط من التفكير الواقعي نما وتطور الطب التقليدي الموروث على مر العصور.

من هنا نستطيع أن نقول: إنه منذ ظهور الإنسان على الأرض تعرض للأمراض، ومنذ ذلك الحين ظهر أناس لديهم الملكة واكتسبوا الخبرة في التعامل معها، مما يجعل الطب أحد أقدم المهن في تاريخ البشرية.

الطب في بلاد ما بين النهرين

في هذه المنطقة من العالم القديم نمت وترعرعت ثلاث حضارات عريقة لثلاثة شعوب سامية تتشابه في اللغة والدين والثقافة والكتابة باستعمال الخط المسماري.

أولها ظهوراً كانت الحضارة السومرية في الجنوب وعاصمتها أور. وفي الوسط ظهرت الحضارة البابلية وعاصمتها بابل وكانت الوريث الشرعي للحضارة السومرية، وشمالاً من بابل ظهرت الحضارة الآشورية وعاصمتها نينوى حيث نافست البابليين. ومن نص لهيرودوت [٤] يفيد فيه أن البابليين كانوا يعرضون مرضاهم في الأسواق والميادين العامة على الشعب، لكي ينصحهم أو يقدم لهم التوصية أي شخص تعرض لهذا المرض من قبل أو يُعلم عن شخص تعرض لذلك يستطيع أن يقدم النصح للمريض ليشفى[٥]. ومن هذا النص قد يفهم أن البابليين لم يكن لديهم أطباء، ولكن نصوص قانون حمورابي تنفي هذا جملةً وتفصيلاً. حيث ذكر لفظ "أسو" بمعنى الطبيب الجراح عند تحديد أجورهم والعقوبات التي يتعرضون لها عند الخطأ.

نصوص مواد من قانون حمورابي تتعلق بتنظيم الطب:

٢١٨: "إذا قام أسو(جراح) بعمل عملية لرجل نبيل من أجل علاج جرح كبير باستعمال مشرط برونزي وتسبب في موته. أو فتح خراج في عين رجل باستعمال مشرط برونزي وأدى إلى فقد عين الرجل يجب عليهم قطع أصابعه".

٢١٩: "إذا قام أسو بعمل عملية لعبد رجل حر باستعمال مشرط برونزي، وسبب موته، فعليه تعويضه بآخر بنفس القيمة".

٢٢١: "إذا أصلح أسو عظم مكسور لرجل نبيل أو شفاه من مرض في أمعائه، على المريض أن يدفع خمسة شياكل من الفضة للطبيب".

٢٢٢: "إذا كان الرجل حراً، يجب عليه دفع ثلاثة شياكل من الفضة".

٢٢٣: "إذا كان عبداً لرجل، يجب على مالك العبد دفع شيكلين من الفضة للطبيب".

٢٢٤: "إذا قام طبيب بيطري بإجراء عملية لجرح كبير لثور أو حمار، وأنقذ حياته، على مالك الثور أو الحمار إعطاء الطبيب أجرته، ومقدارها سدس شيكل من الفضة"[٦].

أهم سمات طب حضارة مابين النهرين:

قام الملك الآشوري أشور بنيبال (٦٦٩-٦٢٦ ق.م) راعي العلم والعلماء وباني القصور والمعابد بالطلب من الناسخين بنسخ كل ما كتب في الحضارة السومرية والبابلية، وقد تم له ذلك، وتجمع لديه ما يقرب من مئة ألف لوح، وصلت إلى عصرنا فقط ثلاثون ألف لوح في حالة جيدة. ومنها استطعنا التعرف على حالة الطب والأطباء في بلاد ما بين النهرين.

وتميز الطب في الحضارات الثلاث هذه بالمزج بين الوصفات العلاجية بالطقوس الدينية والاستدلال بالنجوم وحركة الكواكب. ومعظم أطباء هذا العصر

كانوا من الكهنة وإن كان هذا لا يمنع معرفتهم بالأعشاب والعقاقير الطبية، فمن هذه الألواح التي وصلت إلى عصرنا تم حصر مئتين وخمسين مادة من أصل نباتي ومئة وعشرين من أصل معدني استعملت في العلاج. كما استطاع هؤلاء الأطباء الكهنة التوصل إلى بعض المعلومات التشريحية عن طريق تقديم القرابين؛ وملاحظة الأعضاء الداخلية للحيوانات المذبوحة ومقارنتها.

ووفق معتقدهم الديني في ذلك الوقت كان الدم يرمز إلى الحياة فلذا جعلوا الكبد أهم عضو في الإنسان، وإن عرفوا القلب وتشريحه[٧].

الطب في مصر القديمة[٨]

كما مر معنا فإنّ الطب ظهر بظهور الإنسان على الأرض ولكن أول شعب مارس الطب على أسس سليمة كان في مصر القديمة. وقد كان الاعتقاد قديماً أن الطب في مصر القديمة لا يختلف عن الطب لدى القدماء وشعوب الحضارات القديمة أي كثير من السحر والشعوذة والعرافة وربط الأمراض بالأرواح وغضبها وحركة الكواكب والنجوم وغضبها والشفاء بإرضائها، وقليل من الطب الواقعي الذي يقوم على العلاج بالأدوية أو بالجراحة، وقد ثبّت هذا الرأي أن بعض النصوص في المعابد دلت على أن الكاهن هو من كان يمارس الطب، كما وجدت كثير من النصوص تحتوي على تعاويذ وتلاوات دينية تستخدم طلباً للشفاء، إلى أن تم اكتشاف عدد من البرديات، كتبت في عصور مصر القديمة عن كثير من أحوال مصر في عصورها السحيقة، فمثلا " بردية سميث " كتبت في القرن السابع عشر قبل الميلاد كنسخة عن نص قديم يرجع إلى عام ٣٠٠٠-٢٥٠٠ ق.م.

وقد وصل إلى عصرنا ست برديات تتناول أحوال الطب. ومن الدراسة المتأنية لرسوم ونصوص المعابد أمكن التعرف على كثير من سمات الطب في مصر القديمة وصحح الاعتقاد القديم من أن هذا الطب كان يقوم أساساً على السحر والشعوذة وأثبتت أن الطب الذي كان يمارس في مصر في ذلك الوقت قام على أسس واقعية من الملاحظة والتجربة.

وقد يكون ارتباط الطب بمعتقداتهم في ذلك الوقت هو الذي أدى إلى هذه النظرة الواقعية إلى صنعة الطب وتراكم المعرفة القائمة على الملاحظة لديهم، فلننظر كيف تم هذا:

لقد اعتقد المصريون القدماء بفكرة خلود الروح وبعث الأجساد، بحيث ارتبطت فعالياتهم الحياتية وعمرانهم وطقوسهم الدينية بهذا الاعتقاد، ومنه برزت فكرة تحنيط الأجساد، وقد بلغوا في هذا شأواً بعيداً، والذين كانوا يقومون بالتحنيط بطبيعة الحال هم الكهنة، لكونه طقساً من الطقوس الدينية، ولكي يستطيع الكاهن القيام بذلك لا بد له من العلم والمعرفة القائمين على أسس واقعية علمية قد تعلمها، ونتيجة ممارسته عملية التحنيط توصل إلى معرفة علمية واقعية في علم التشريح. وهذه ساعدته في تنمية معارفه في علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) ونمّت علمه في الجراحة.

وهكذا أصبح هذا الكاهن الذي يمارس الطب أيضاً يقدم طباً واقعياً يقوم على الملاحظة، وتقل فيه الترانيم والتراتيل. وبعد ذلك ظهر الطبيب الذي يمارس الطب فقط.

ومن هذه البرديات الست تم التعرف -كما ذكرنا سابقاً- على أهم سمات الطب في مصر القديمة سنذكرها بإيجاز بعد أن نذكر هذه البرديات الست وهي:

١- بردية ايوني سميث ٢- بردية ايبرز ٣- بردية هيرست ٤- بردية كاهون ٥- بردية لندن ٦- بردية برلين.

وأهمها جميعا بردية سميث حيث تعتبر أقدم وثيقة جراحية علمية في العلاج وصلت إلينا. وكما ذكرنا سابقاً كتبت في القرن السابع عشر قبل الميلاد كنسخة أصل قديم كتب في عصور سحيقة (٣٠٠٠ - ٢٥٠٠ قبل الميلاد)، أي قبل حوالي أربعة آلاف وخمسمئة إلى خمسة آلاف عام!

وتحتوي على معلومات عن علم التشريح الفسيولوجي نتعجب في عصرنا الحديث عن كيفية التوصل إليها قبل خمسة آلاف عام. وفي هذه البردية وردت كلمة (المخ) لأول مرة في لغة إنسانية. قبل اكتشاف هذه البردية قيل إن أول من ذكر كلمة (مخ) كان "الكاميون"[٩] عام ٥٠٠ قبل الميلاد. بينما كان الاعتقاد السائد في ذلك العصر ولعصور طويلة بعد ذلك أن مركز الوعي والذكاء يقع في القلب أو البطن، ذكرت هذه الوثيقة أن الشلل النصفي نتيجة إصابة في الرأس وتعتمد جهة الشلل على الجهة التي أصيبت من الرأس! كما أن هناك وصفاً للقلب باعتباره مركز توزيع الدم، كما وصف نبض الأوعية وأنه دليل على وجودها وبأنه كلام القلب، وهذا ينفي ما قيل سابقاً بأن أول من وصف النبض في التاريخ هو أبقراط!.

أهم سمات الطب في مصر القديمة:

- يقوم على الملاحظة والتجربة وقليل من التعاويذ والتراتيل.
- نظّم الطب مهنياً وإدارياً.
- أعطانا أرسطو مثلا لمدى مسؤولية الأطباء في مصر القديمة:

"ولا يسمح للأطباء المصريين بأن يصرحوا للمريض بأن يتحرك من فراشه ثلاثة أيام متتالية، فإذا أباح له أحدهم بذلك فعليه أن يتحمل مسؤولية المخاطرة"(١٠).

- كانت هناك مصلحة حكومية خاصة بأطباء السراي بل بالأطباء عموماً تشرف على عملهم.

- قسم الأطباء إلى طبيب عام - طبيب أخصائي - مفتش أطباء - رئيس أطباء.

- بل كانت هناك وظيفة الرئيس الأعلى لأطباء الوجه البحري والقبلي.

- وكان هناك أطباء خاصون للملك ولزوجته وللحكام وأطباء متخصصون بل ذكر هيرودوت بأنه كان لديهم طبيب متخصص لكل عضو في الجسم.

- أطباء الملك كانوا يعالجون عامة الشعب مجاناً.

- وكان يستطيع الأطباء أن يصلوا إلى مراكز سامية في القصر، فالطبيب بنتو وصل إلى أنه كان يستطيع الدخول على الفرعون في أي وقت فقد وجد نص عليه اسمه يحمل لقب "الذي يدخل القصر ويخرج منه"

- الطب العلاجي: عالجوا الكسور والجروح والأورام والتقرحات والاستسقاء حيث أنها وصفت ووضعت وصفات علاجية لها.

- كما كانوا أول من استعمل الضمادات والأربطة والجبائر للجروح والكسور.

- واستعملوا الكي للقروح والأورام ووقف النزيف.

- استخدموا المراهم والأدهنة والحبوب والأمزجة والاستنشاق.

- وعالجوا بالحقنة الشرجية.

- الوصف الإكلينيكي: كانت لديهم قدرة على الوصف الإكلينيكي الدقيق فأي طبيب من العصر الحديث عندما يقرأ النص القادم لن يستطيع أن يضيف أي مزيد:

"إذا قمت بفحص رجل يشكو من مغص في بطنه وكان بطنه صلبا يابسا من التهاب أو قيح فيه لا يجد طريقاً يخرج منه، فإنه سيتدفق ما في بطنه وسيحدث له التواء في أمعائه"(١١).

وفي العصور اللاحقة عندما سقطت مصر تحت حكم ورثة الإسكندر المقدوني من البطالمة، تحولت مصر وخاصة الإسكندرية إلى مركز مهم للثقافة الهيلينية وبالتالي للطب الإغريقي.

وقفة فيما يخص الطب في مصر القديمة:

ليس غرضنا في هذا الكتاب تأريخ الطب، بل غرضنا هو دراسة وتوضيح تنظيم العرب للطب خلال الحضارة العربية الإسلامية، ولهذا كان لابد من سرد موجز لتاريخه خلال هذه الحضارة، ولكي نستطيع فهم وتوضيح تطوره هذا كان لا بد من الرجوع ولو بإيجاز شديد إلى تاريخ الطب في الحضارات السابقة، لذا

كان هذا الإيجاز الشديد في سرد تاريخ الطب في مصر القديمة وبيان أهم سماته فقط، مع علمنا أن الكتابة عن تاريخ الطب في مصر القديمة تحتاج إلى مجلدات.

وكذلك خلال سردنا السريع لأهم سمات الطب في مصر القديمة وجدنا أن أساس طبهم هو الملاحظة والتجربة، وخلال قراءتنا لهذا الكتاب سنرى أن مركز الطب في العالم انتقل في العصور اللاحقة إلى الإغريق الذين أخضعوا الطب إلى نظرتهم إلى جميع العلوم أي إلى التأمل الفلسفي والتجريد. وسيتضح لنا من هذا الكتاب أيضاً أن أهم سيمات الطب العربي هو الملاحظة والتجربة. فإذا أمعنا في هذا وبقليل من التفكير علينا أن نتصور مدى التطور الذي كان سيصل إليه الطب لو انتقل طب مصر القديمة رأساً إلى العرب بدون المرور على الإغريق؟.

الطب في الهنـــد

تعتبر الحضارة الهندية واحدة من أقدم المدنيات في العالم، وقد أثبتت الحفريات الحديثة وخاصة اكتشافات السير جون مارشال[١٢] أن هذه الحضارة أقدم وأعرق من النصوص المكتوبة التي وصلت إلينا من الهند، ويرجع ذلك إلى عدم توصلهم إلى أبجدية تمكنهم من تدوين علومهم وآثارهم، إلى أن وصلت إليهم وثيقة مكتوبة من الشعوب السامية في الشرق الأوسط، فتبنوا طريقة كتابتها في لغتهم وظهرت بذلك اللغة السنكسرتية المكتوبة.

وقد قسم المؤرخون مراحل الطب في الهند إلى ثلاث مراحل:

- مرحلة فيدا أو مرحلة كتب المعرفة: فيدا بمعنى المعرفة وتطلق على كتب المعرفة المدونة

- المرحلة البراهمانية: نسبة الإله براهما لعقيدة الهنود المتعددة الآلهة.

- المرحلة المغوليـــة: في الفترة التي حكم فيها المغول المسلمون الهند واستمرت إلى الغزو البريطاني.

أولاً: الطب الهندي - مرحلة فيـدا:

كما قلنا سابقاً: فيدا بمعنى المعرفة، وتعني كتب المعرفة، وهي تمثل مرحلة البداية الهندوسية. ومن الكتب الكثيرة التي كتبت في المعرفة في ذلك العصر، لم يصل إلى عصرنا غير أربعة كتب منها، وهي:

١- ريج فيدا: كتاب المعرفة عن تراتيل الحمد والتسبيح.

٢- ساما فيدا: كتاب المعرفة عن ألحان العذوبة.

٣- ياجو فيدا: كتاب المعرفة عن الوصفات القربانية.

٤- أثارفا فيدا: كتاب المعرفة عن الوصفات السحرية.

أقدم هذه الكتب هو الريج فيدا. وكل كتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام.

القسم الأول: سانهيتا

القسم الثاني: برهمانا

القسم الثالث: سوترا

سمات الطب الهندي في مرحلـــة فيدا:

هو أول تسجيل لفنون المعالجة في الريج فيدا وفي أثارفا فيدا. وطبهم في هذه المرحلة يعتمد على قوى ما فوق الطبيعة، وعلى حركة الكواكب والنجوم والسحر والأرواح والتعاويذ. وكانوا يعتقدون بوجود ثلاثة وثلاثين إلهاً للمعرفة

متخصصين لحفظ الصحة، والوقاية من الأمراض، وجلب الشفاء للمريض كما كان اعتقادهم أن الأرواح هي المسببة للأمراض. وهذه الآلهة تمثل قوة النار والشمس والريح والضوء والأرض.

كما كان اعتقادهم الطبي يقوم على أن الأدوية لا تكون نافعة في العلاج من الأمراض إلا إذا بوركت من الإله، ولهذا كانت كثير من العلاجات في هذه المرحلة تجري في المعابد للحصول على البركة. وقُسم أطباء الهند في هذه المرحلة إلى ثلاث فئات:

١-طبيب ٢- جراح ٣- طبيب ساحر.

كما اعترفوا بالأطباء كطبقة متميزة منذ العصور القديمة، وذكروا في الريج فيدا، أنهم كانوا مزودين بصناديق طبية تحتوي على النباتات العطرية التي تؤمن للطبيب سلاحه في محاربة المرض.

المعالجات الطبية التي تمت في هذه المرحلة:

في الأثارفا فيدا ذكرت عدة أمراض مثل الخراجات، الأورام، المغص، الإمساك، الإسهال، النقرس، الصفرا، أمراض قلبية، الشلل النصفي، الجذام، الأمراض الجنسية أمراض العيون.

كما تناولت أيضاً الولادة وفنونها وذكروا مدة الحمل بعشرة أشهر قمرية. وكتابتهم في الجراحة في هذه المرحلة تُظهر تقدماً كبيراً؛ فهناك شرح عن سيقان صناعية، عيون صناعية، وأسنان صناعية.

ثانيا: الطب الهندي - المرحلة البراهمانية:

هذه المرحلة تمثل أعلى مراحل التقدم للطب الهندي التقليدي، وقد تميزت هذه المرحلة بتحكم وتسلط الكهنة البراهمانيين، فهم الذين يمثلون الإله براهما على الأرض، وهم خدم كل المعارف، وهم المعلمون والشعراء والكتاب، الكهنة والمحامون والمعالجون منهم، كما أنهم المفسرون لكتب فيدا (التي تحدثنا عنها) والمتحكمون في الحياة الاجتماعية والثقافية في الهند.

وبالنسبة لمعتقداتهم فإن فحص الميت محرم، وأي شخص يلمس ميتا عليه الاستحمام والقيام بطقوس دينية معينة ليتطهر؛ ومن هنا كانت معلوماتهم التشريحية غير وافية وتقوم على الوصف الظاهري وبها كثير من التخمينات والتصورات الخاطئة.

"أتريا" هو أبو الطب الهندي، خريج مدرسة تاكسيلا الكبرى (جامعة تاكسيلا في لغتنا المعاصرة)، مؤلف كتاب "أتريا-سامهيتا"، وفيه لم يتناول الأمراض من وجهة النظر التشريحية، بل قسمها إلى أمراض قابلة للشفاء وأمراض غير قابلة للشفاء، والقابلة للشفاء قسمها بدورها إلى قابلة للشفاء بالسحر وإلى أخرى غير قابلة. جميع من أتوا بعده اعتبروا أنفسهم مفسرين لأتريا، ومن هذا الخلف برزت ثلاثة أسماء في سماء الطب الهندي هم: شاراكا وسوسروتا وفاغباتا.

اختلف المؤرخون كثيراً في تاريخ تواجدهم، فمن قائل أن شاراكا عاش في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، ومن كتب أنه عاش في فترة الملك كانيشكا

(١٢٠-١٦٢ ميلادية)، وبعضهم كتب أن سوسروتا وُجِد في القرن الحادي عشر الميلادي، وبعضهم وضعهم في القرن السادس الميلادي، وآخرون قالوا بالقرن السادس قبل الميلاد. ويرجع ذلك الاختلاف إلى عدم حرص الهنود في تدوين التواريخ.

أهم سمات الطب الهندي في المرحلة البراهمانية وإنجازاته:

أول من بنى المستشفيات في التاريخ كانوا هنود سيلان في القرن الخامس قبل الميلاد[١٣].

كان الطب لديهم وخاصة "طب شاراكا" مزيجاً من المعتقدات والفلسفات والطب الواقعي. ونظريتهم في الفسلجة تقوم على أن الجسم يتكون من الأخلاط والإفرازات والأصول الجوهرية. أما الأخلاط فتتكون من ثلاثة تكون هذه الثلاثة في حالة توازن عند الصحة، ويظهر المرض عند تغلب أحد هذه الأخلاط في النِّسب. وهذه الأخلاط هي البلغم والصفراء والهواء؛ هذه هي الترجمة الغربية المبسطة للأخلاط الثلاثة، ترجمة الذين لم يفهموا الفلسفة الجدلية في الحضارة الهندية، فالخليط في فلسفة الهند ليس على شكل واحد (كما قد يفهمه الغربيون)؛ بل يمكن أن يوجد في عدة أشكال وصور:

فايو: الهواء وله خمسة أشكال مختلفة.

بيتام: الصفراء ولها أربعة أشكال مختلفة.

كافاه: البلغم وله خمسة أشكال مختلفة.

ووفق نظريتهم هذه (التي يصعب سبر غورها لمن هو غريب عن الفلسفة الهندية): المستحلب الغذائي ينتج الدم، الدم يشكل اللحم، اللحم يشكل الدهن، الدهن ينتج العظام، العظام تنمي النخاع والنخاع ينتج المني، وهذا المستحلب مركزه الرئيس القلب، ويتوزع منه خلال أربعة وعشرين وعاء، تتبع من القلب إلى الأطراف.

ومعلوماتهم عن التشريح تقوم (كما قلنا سابقاً) على الوصف الخارجي؛ وذلك لمعتقداتهم الدينية، وإن كان البعض يعتقد أن سوسترا قد مارس التشريح ولو قليلاً حيث إن معلوماته التشريحية أفضل من شاراكا. وقد أوردوا في كتبهم هذه أن الجسم يتكون من:

١٠٧ جزء حيوي، ٧٠٠ وعاء دموي خارجة من منطقة الصرة، ٣٠٠عظمة، ٩٠٠ رباط، ٥٠٠ عضلة عند الرجل و٥٢٠ عضلة عند المرأة.

وكانوا يعتبرون الأوردة والشرايين والأعصاب عبارة عن قنوات في الجسم، حددوا منها أربعين قناة رئيسة في سائر الجسم وستاً وثلاثين قناة في اللسان أربعاً وعشرين قناة في الأنف وعشر قنوات في الأذن.

وعرفوا ووصفوا كثيراً من الأمراض منها:

مرض الأسقربوط، وأنه يؤدي إلى تساقط الأسنان.

الجذام وأنه ينتقل بالعدوى وعلاقته بالفئران، وأنه يؤدي إلى فقد حاسة اللمس.

والملاريا وعلاقتها بالناموس.

والذبحة الصدرية.

بالإضافة إلى وصف عدد كبير من أمراض العيون.

ومرض البول السكري، ووضعوا وصفاً لبول مريض السكري من جهة الرائحة والطعم وأنه يجذب النمل إليه وسموه: "البول العسلي".

وكان الأطباء الهنود ماهرين في استعمال العقاقير من أصل نباتي، فقد وضع سوسترا مثلاً وصفاً لسبعمئة وستين نباتاً طبياً، كما وصف عدداً كبيراً من العقاقير ذات الأصل المعدني، كما مهروا في استعمال النباتات المخدرة في التخدير مثل القنب الهندي وست الحسن.

وبرعوا في الطب الجراحي وخاصة سوسترا حيث كان جراحاً أيضاً، ووضع وصفاً لمئة وواحد من الأدوات الجراحية. وقسّم العمليات الجراحية إلى ستة أقسام رئيسية. واستعمل سوسترا الخيوط من ذيل الحصان، كما استعمل شاراكا النمل الكبير في لحم الجروح التي تحدث في الأمعاء، وذلك بأن يجعل النمل الكبير يعض طرفي الجرح أو الشق ثم يقطع رأسه، وأستعمل المغناطيس في إخراج الحديد. وحيث كان قطع الأنف والأذن من العقوبات السارية في عصرهم، فكانت لهم ممارسات في جراحة التجميل والترقيع.

وقد اهتموا بالأسنان والحفاظ عليها ومعالجة أمراضها، وعرفوا عمليات قدح العين، ووصفوا الولادات الصعبة وأوضاع الولادة والعمليات القيصرية. كما استعملوا قيح مرض الجدري في التحصين للوقاية من الأوبئة.

وقد ترك لنا الأطباء الهنود سبعمئة إلى ثمانمئة كتاب طبي وضعت من قبل مئتين وثلاثين طبيباً.

ثالثا: الطب في الهنـــد - المرحلة المغوليـــة:

هذه المرحلة لن نطيل فيها، حيث تمتد من سقوط دلهي تحت حكم سلاطين المغول المسلمين إلى الاحتلال الأوروبي لها. وفيها وجد الطب الهندي القديم (وقد تحدثنا عنه) إلى جانب الطب العربي الذي انتشر في الهند عن طريق الأطباء المسلمين الذي أتوا مع المغول، وسنتحدث عنه في الفصول القادمة من هذا الباب.

وقفة عن اتصال الطب العربي بالطب في الهند:

اتصل الطب العربي بالطب الهندي القديم عن طريقين:

أولهما: غير مباشر، ذلك عن طريق تبني الطب العربي للطب الإغريقي الذي أحد روافده الطب الهندي القديم.

وثانيهما: مباشر، وذلك عن طريق الفتوحات الإسلامية المبكرة لغرب الهند، ثم بانتقال بعض الأطباء الهنود للعمل في حاضرة الدولة العباسية مثل منكة الهندي الذي عالج هارون الرشيد، وكذلك صالح بن بهلة الهندي الذي عمل في بلاط هارون الرشيد[١٤].

كما ترجمت كتب هندية عديدة إلى اللغة العربية، يقول ابن أبي أصيبعة

صاحب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء " بعد أن عدّد أسماء عدد من الأطباء الهنود القدماء:

"... كل هؤلاء أصحاب تصانيف، وهم من حكماء الهند وأطبائهم ولهم الأحكام الموضوعة في علم النجوم والهند تشتغل بمؤلفات هؤلاء فيما بينهم ويقتدون بها ويتناقلونها، وقد نقل كثير منها إلى اللغة العربية "[١٥].

ويقول أيضا: "ووَجدتُ الرازي قد نقل في كتابه الحاوي وفي غيره عن كتب جماعة من الهند مثل كتاب شرك[١٦] الهندي، وهذا الكتاب فسره عبدالله بن علي من الفارسي إلى العربي؛ لأنه أولاً نقل من الهندي إلى الفارسي، وعن كتاب سسرد[١٧]..."[١٨].

كما أورد ابن النديم في فهرسه عدداً من كتب الهند في الطب الموجودة بلغة العرب مثل:

- كتاب سسرد (سوسروتا) عشر مقالات، كتاب أستانكر الجامع تفسير ابن دهن، كتاب سيرك (شاراكا) فسره عبدالله بن علي من الفارسي إلى العربي، كتاب سند ستاق معناه: كتاب صفوة النهج، تفسير ابن دهن صاحب البيمارستان، كتاب مختصر الهند في العقاقير، كتاب روسا الهندية في علاجات النساء، وغيرها من الكتب[١٩].

ولكي نوضح بعض تأثير الطب الهندي في الطب العربي، لنسترجع سوياً ما سبق أن ذكرناه عن طريقة الهنود القدماء في خياطة الأمعاء باستعمال رؤوس النمل الكبير؛ فقد وجدنا في المقالة الثلاثين من كتاب أبي القاسم الزهراوي

"التصريف لمن عجز عن التأليف" في الفصل السادس والثمانين "في أنواع الجراح التي تعرض في الأمعاء " الفقرة التالية:

"... وقد ذكر بعض أهل التجربة: أنه متى عرض في المعاء جرح وكان صغيرا، فينبغي أن يخاط على هذه الصفة، وهو أن يؤخذ النمل الكبار الرؤوس ثم تجمع شفتا الجرح وتوضع نملة منها وهي مفتوحة الفم على شفتي الجرح وإذا قبضت عليها وشدت فمها قطع رأسها....." (٢٠).

ولكننا نجد على وجه العموم أن تأثير الطب الهندي في الطب العربي أقل بكثير من الطب الإغريقي؛ وذلك يرجع غالباً لارتباط الطب الهندي ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة العقائدية للديانات الهندية التي تتنافى مع العقيدة الإسلامية والعقل العربي.

الطب في الصين

لم يرتبط طب أمة من الأمم ارتباطاً وثيقاً بعرى لا تفصل بمعتقداتها ونظرتها الفلسفية ارتباط الطب الصيني بمعتقداتها ونظرتها الفلسفية للكون. ولا يستطيع الشخص أن يتفهم الطب الصيني ويتعرف عليه إن لم يدرس أو أن يلقي نظرة على الأقل على معتقدات الصين وفلسفتها. ومن المؤكد أنه هناك عوامل عدة أدت إلى هذا التميز الفريد للطب الصيني الذي لم يتأثر كثيرا بالروافد الآتية له من تجارب الشعوب الأخرى، ولم يؤثر تأثيراً كبيراً في طب الأمم الأخرى. ولنلقِ أولاً نظرة على هذه العوامل لكي نتعرف على نظرية الطب الصيني وأهم سماته.

العامل الأول:

أهم عامل أثر في الطب الصيني وارتبط به هو عقيدة تاو؛ ففي الصين انتشرت ثلاثة عقائد رئيسة وهي التاوية، والكونفوشوسية، والبوذية، أقدمها عقيدة تاو. مؤسسها "لي تان" عرف بعد ذلك باسم "لا وتسو"، وفلسفته ونظرته للكون أثرت على جميع الصينيين وعلى حياتهم الاجتماعية وإنتاجهم الثقافي والفني والعلمي بغض النظر عن ديانة الفرد الصيني، وهذه العقيدة تقوم على وجود قوتين كونيتين "ين" القوة السلبية (الشر) و"يانج" القوة الإيجابية (الخير).

ين (القوة السلبية): العنصر الأنثوي ويمثل البرد والظلمة والأمراض والموت.

يانج (القوة الإيجابية): العنصر الذكري ويمثل الدفء والنور والصحة والحياة.

وهاتان القوتان تتحكمان في كل نظام الكون (حسب اعتقادهم).

العامل الثاني:

الحضارة الصينية كأحد أقدم المدنيات التي ظهرت في التاريخ؛ أهم سمة لها هي الاستمرارية، فقد عاصرت صعود وسقوط أقدم الحضارات من الفرعونية والكلدانية والبابلية والآشورية والإغريقية والرومانية.... ولا تزال مستمرة إلى عصرنا الحالي. وعلينا أن نتصور هذا الموروث الحضاري الضخم الذي تجمع عبر ما يربو على أربعة آلاف وخمسمئة عام وخاصة في الطب.

العامل الثالث:

سمة أخرى ميزت الحضارة الصينية وقد تكون سبب استمراريتها على الرغم من مراحل الهبوط التي مرت بها، فعبر آلاف السنين قاومت هذه الحضارة والصينيون أنفسهم أي تغيير سواء من الداخل أو الخارج.

في الداخل: فعلى الرغم من أنهم قاموا بكثير من الاكتشافات والاختراعات مثل الطباعة والورق والبارود، بل اخترعوا آلة لتسجيل الزلازل، إلا أنهم لم يوظفوها حضارياً ولم تلعب دوراً كبيراً في التأثير على الاتجاه العام للتاريخ الصيني.

من الخارج: قاوموا أي تأثير يأتيهم. يقول فولتير: "استمرت الحضارة الصينية لمدة أربعة آلاف سنة بدون أن تخضع لأي تغيير جذري في قانونها وتقاليدها ولغتها أو حتى نمط الكساء" (٢١).

نشوء الطب في الصين ونظرياتها الطبية وأهم سمات الطب الصيني:

كما مر معنا في حديثنا عن الطب عند الحضارات الأول في العالم فإن الإنسان الصيني لم يختلف عنهم في الاعتقاد بأن الشمس والقمر والنجوم والعواصف والغيوم والبرق والرعد ممثلة للآلهة، وإن الأمراض تنتج من دخول الأرواح الشريرة لجسمه، وفي البدء كان الكاهن يقوم بالمعالجة (مثل بقية الحضارات الأول) بالتعاويذ والسحر والشعوذة إلى أن فصلت مهنة الطب عن الكهنة، وكان ذلك خلال فترة حكم أسرة "شو" (١١٤٠ قبل الميلاد).

وكما تعرفنا من قبل فإن عقيدة "تاو" ونظرتها الفلسفية إلى الكون تؤمن بوجود " ين " القوة السلبية و" يانج " القوة الإيجابية، وتحكمت هذه العقيدة في كل أوجه النشاطات الإنسانية في الصين ومنها الطب، ولنواصل الآن التعرف على نظرتهم هذه:

يانج (القوة الإيجابية) وين (القوة السلبية) هما منشآ العناصر الخمسة: الخشب، والنار، والتراب، والمعدن، والماء. وكل مادة في الكون سواء كانت حيةً أو جماداً تتكون من هذه المواد الخمسة بنسبٍ معينة، المتحكم فيها "ين" و "يانج"، وهذا ينطبق أيضاً على الجسم البشري. والإنسان يكون في صحة جيدة عندما تكون هذه العناصر في نسب منسجمة، وعندما تضطرب هذه النسب ينتج

المرض، كل هذا يتم بسيطرة "ين" و "يانج" نتيجة لانسجام أو اضطراب العلاقة بينهما (حسب اعتقادهم).

هذه العناصر الخمسة التراب والنار والماء والخشب والمعدن تتمثل في الجسم في خمسة أعضاء هي: القلب والكبد والكلى والطحال والرئة، وتكون في علاقة مؤكدة معقدة مع الكواكب والطقس، وهناك ثلاثة أنفس موزعة كالآتي: نفس في الرأس ونفس في البطن ونفس في القدم.

ويعتقد الصينيون في فلسفتهم ونظرتهم إلى الكون: أن هناك كون كبير وهو العالم، وكون صغير هو الإنسان (العالم الصغير)، فكما أن السماء مستديرة والأرض مربعة؛ فرأس الإنسان كذلك مستدير وأرجله مربعة! يوجد في السماء الشمس والقمر والنجوم والمطر والعواصف والرعد والبرق؛ يوجد في الإنسان العيون والأسنان والفرح والغضب والصوت العالي منه والواطئ.

في الأرض تسعة أقاليم ... في الإنسان تسع فتحات.

في الأرض اثني عشر نهرا ... في الإنسان اثني عشر نبضاً.

في الأرض أربع بحار... في الإنسان أربع صهاريج: المخ والدم والماء والهواء.

الإنسان لديه ثلاثمئة وستين عظمة وهي نفس درجة الدائرة.

وهكذا تستمر لعبة الأرقام في الفلسفة الطبية الصينية: فهناك: خمسة أنواع من البلاء، خمسة أنواع من الألم، خمسة أنواع من الأمراض المختلفة، خمسة أنواع من الجروح، ستة أنواع من الطقس، سبعة أنواع من العاطفة.

كما يوجد أربع طرق للفحص: الملاحظة - الاستماع - السؤال - الجس.

الاستماع يقصد به تمييز نوعية الصوت من حيث النوعية: فالصوت القوي يدل على تأثير يانج، والصوت الضعيف تأثير ين، والصوت الرفيع يدل على مرض في الرأس والصوت بحشرجة يدل على مرض في القلب.

الجس يقصد به فقط جس النبض.

وقد انقسم أطباء الصين إلى خمسة فرق رئيسة، وهذه انقسمت بدورها إلى مذاهب.

الفرق الخمسة هي:

١-الفرقة المحافظة، ٢- الفرقة المتطرفة، ٣- الفرقة الوسطية، ٤- فرقة يانج ين، ٥- فرقة ون بو.

وهي تختلف فيما بينها في: هل جَوهر ين ضعيف فيحتاج إلى تقوية، أو يجب الاهتمام أكثر بيانج وهكذا؟

أهم مؤلف في الطب لديهم ويعتبر دستور الطب الصيني هو كتاب: "كن شنج"، كُتب من قبلَ أبي الطب الصيني الإمبراطور "هوانج تي" قَبل حوالي ما يزيد عن أربعة آلاف عام، وإن كان قد كُتب في صيغته الأخيرة في عصر أسرة (شوي) (٣٠٠ ق.م). وإلى وقتنا الحالي يعتبر هذا الكتاب المرجع الرئيس في الطب الصيني، وهو يتكون من جزأين: الجزء الأول ويسمى "سيوون" أي الأسئلة

المحضة وهو عبارة عن نقاش بين الإمبراطور "هوانج تي" ووزيره. والجزء الثاني "لنج شو" ويتناول طرق العلاج بالإبر الصينية.

وعلى الرغم من أن عقيدة تاو تسمح بالتشريح بعد الموت إلا أن الأديان الأخرى في الصين تمنع ذلك، ومن هنا كانت معلومات هذا الكتاب التشريحية تصوّرية وليست واقعية.

فبعد أن يعطى الكتاب قياسات للسان والمريء والمعدة والأمعاء، يفيد بالتالي:

وجود ٣٦٥ عظمة في الرَّجل، بينما تنقص في المرأة خمسة عظام.

وجود ٣٦٥ مفصل.

الأوعية الدموية تتكون من اثني عشر وعاءً دموياً رئيساً تمثل الاثني عشر شهراً في السنة.

وأربعة شرايين تمثل الفصول الأربعة.

وعلم وظائف الأعضاء (الفسلجة) في هذا الكتاب يقوم على التصور الخيالي غير الواقعي نتيجة ارتباطه بفلسفة معتقداتهم:

القلب: هو أمير الجسم ومقر الروح الحية.

الرئة: وزير القلب، منبع التنفس، ومسكن الروح الحيوانية.

الكبد: القائد العسكري ومسكن النفس، أو الجزء الروحي للإنسان الصاعد إلى السماء.

المرارة: مجلس الشجاعة.

الكلى: مجلس النشاط والقوة.

المعدة: المسؤول الرسمي عن المخازن العامة.

وعلى الرغم من ذلك فإن ما أورده هذا الكتاب عن الدورة الدموية يقرب من الاكتشافات الحديثة، من حيث أن القلب ينظم الدم في جميع الجسم، ومن حيث أن الدم يستمر في الجريان ولا يتوقف أبداً.

وفي كتاب دستور الطب الصيني الأمراض مقسمة إلى قسمين:

القسم الأول: ينتج من تأثيرات خارجية مثل البرد والجفاف والريح وغيرها.

القسم الثاني: ينتج من تأثيرات داخلية مثل الغضب والخوف والفرح والترح.

ويربط الكتاب هذه الأمراض بالتغيرات المناخية في الفصول الأربعة من السنة. أما الجزء العلاجي من هذا الكتاب فهو يقوم على الإبر الصينية.

هناك طرق علاجية أخرى غير طريقة الإبر الصينية استعملت في الصين من قديم الزمان اعتُبرت جزءاً من الطب التقليدي الصيني أهمها التدليك في أماكن معينة ونوع من الحجامة الجافة.

بالإضافة إلى هذه الطرق الثلاثة في العلاج التقليدي، كانت تستعمل العقاقير في العلاج، وعلى مر الزمن تجمع موروث ضخم من الوصفات العقارية، ففي خلال حكم أسرة " منج " قام العشَّاب الكبير " لي شي تشن " بجمعها في كتاب من اثنين وخمسين مجلداً، جمعها في ستة وعشرين عاماً.

ظهر خلال هذا التاريخ الطويل من الطب الصيني أطباء كبار كثيرون؛ ثلاثة منهم كانوا الأشهر على مر العصور هم: "تسانج كونج" و "شانج شونج شينج" و"هواتو". تسانج كونج مثلا وصف الأورام السرطانية في المعدة، والتهاب المثانة، والتهاب المفاصل، والشلل، وبصق الدم، وأمراض الكلى. وهو قد استعمل العقاقير في علاجه للأمراض أكثر من استعماله للإبر الصينية وإن كان أوصى بها لبعض الأمراض مع الاستحمام والتدليك كعلاج.

وقفة مع اتصال الطب العربي بالطب الصيني:

كما سبق ذكره فإن الحضارة الصينية من أقدم الحضارات الإنسانية، فتاريخها يزيد على أربعة آلاف عام. وهي مستمرة من ذلك الوقت إلى عصرنا الحالي، وإن أحد أهم أسباب استمراريتها هو مقاومتها للتغيير وللتأثيرات الخارجية، فهي عاشت وترعرعت على مساحة شاسعة داخل حدودها الصين مكتفية بنفسها منكفئة على ذاتها وإن كان قد وصل تأثيرها إلى شرق آسيا وجنوبها، إلا أن تأثيرها في مناطق غرب حدودها يعتبر ضعيفاً، مقارنةً بفترة استمراريتها، وإن كان ذلك لا يمنع من حصول اتصال بينها وبين الحضارة العربية الإسلامية. و ما يهمنا هنا الاتصال الحضاري في مجال الطب، فقد أورد

صاحب الفهرست هذه الرواية عن أبي بكر الرازي وتلميذه الصيني، كتب ابن النديم: " قال محمد بن زكريا الرازي: قصدني رجل من الصين، فأقام بحضرتي نحو سنة، تعلم فيها العربية كلاماً وخطاً في مدة خمسة أشهر حتى صار فصيحاً حاذقاً سريع اليد، فلما أراد الانصراف إلى بلده قال لي قبل ذلك بشهر: إني على الخروج، فأحبُّ أن يملى عليّ كتب جالينوس الستة عشر لأكتبها، فقلت: لقد ضاق عليك الوقت."[٢٢] وقد أورد ابن النديم هذه الرواية للاستدلال على سرعة الصينيين في الكتابة بقلمهم. ونحن أوردناها للدلالة على الاتصال الحضاري بين الثقافتين.

وإذا حللنا هذا النص لوجدنا:

١- وجود طلبة يدرسون الطب وغيره من العلوم في العالم الإسلامي من جميع أنحاء العالم، حتى من الصين.

٢- أورد ابن النديم هذا النص عند كتابته عن القلم الصيني للاستدلال على سرعة الصينيين في الكتابة وليس للاستغراب من وجود طالب طب صيني في العالم الإسلامي، مما يدل على أن وجود الطلبة من أطراف العالم أمر عادي.

٣- وجود طالب طب صيني يقيم لمدة سنة (وقد يكون قد وُجد غيره أيضا) يحتم علينا الاعتقاد بأنه نقل معه كثيراً من المعرفة الطبية الصينية، ومن المحتم أنه ناقشها مع زملائه من أطباء الحضارة العربية الإسلامية.

٤- ومن سياق القصة نستدل أن هذا الطبيب الصيني نقل جزءاً من التراث الطبي الإغريقي المفسر والمعدل عربيّاً إلى الصين، كما نقل خبراته في الطب العربي التي جمعها من ملازمته للرازي لمدة عام.

ونستدل أيضاً على هذا الاتصال بين الحضارتين من القصة الأخرى التي أوردها ابن النديم عندما تحدث عن مذاهب أهل الصين، وهي قصة الراهب النجراني العائد من بلاد الصين في سنة سبع وسبعين وثلاثمئة [٢٣] ووصفه لبلاد الصين وعقائدهم. كما أورد ابن النديم قصصاً أخرى عن الصين.

لذا نستطيع أن نقول: إنه وإن كان هناك تواصل حضاري بين دولة الإسلام والصين في مجال الطب كغيره من المجالات؛ إلا أن التأثير الصيني بقي ضعيفاً لبعد العقيدة والفلسفة الطبية الصينية عن التفكير العَقدي الديني لطبيب الحضارة العربية الإسلامية.

الطب الإغريقي

قبل أن نتكلم عن الطب الإغريقي هناك عدة نقاط نود أن نأخذها بعين الاعتبار:

١- إننا في هذا الكتاب لا نؤرخ للطب عموماً، بل عن تنظيم العرب لصنعة الطب في أوج الحضارة العربية الإسلامية، وإنما تطرقنا إلى الطب عند الأمم السابقة لغرضين:

أ) لكي نستطيع أن نفهم الأسس التي قام عليها الطب العربي.

ب) ولكي نستدل سوياً بأن الطب كغيره من المعرفة الإنسانية ليس إنتاجاً خالصاً لأمة بعينها، بل هو محصلة إنتاج الأمم السابقة التي تسلمها للأمم اللاحقة، وهذه بدورها بعد أن تضيف إليها تسلمها للحضارات القادمة، إنها كخط بياني متصاعد يصل بين نقاط الإنتاج للأمم الغالبة حضارياً في كل عصر من العصور.

هذه النقطة أوردناها هنا قبل التحدث عن الطب الإغريقي؛ لأن كثيرين من كتّاب الغرب، ومن استغرب من كتاب العرب والمسلمين يُظهر كأن المعرفة الإنسانية لم تبدأ إلا مع الإغريق، وأنها انتقلت رأسا إلى الغرب، فأردنا للقارئ أن يكون على بيّنة وهو يقرأ هذه الفصل.

٢- الطب الإغريقي لا يقصد به فقط الطب الذي كان سائداً زمن أن كانت أثينا مركز الإشعاع الحضاري الإغريقي، بل هو أيضاً الطب الذي ظل سائداً بعد فقدْ أثينا مركزها الحضاري نتيجة لتغلب إسبارطة عليها وانتقال هذا المركز إلى مراكز أخرى مثل إنطاكية والإسكندرية، وظهور مدرسة الطب في الإسكندرية التي كانت مركز من مراكزاً الثقافة الهيلينية ومنها الطب الإغريقي.

كما أن الطب الذي كان سائدا في الدولة الرومانية ووريثتها الشرعية الدولة الرومانية الشرقية (الدولة البيزنطية) كان هو الطب الإغريقي، فجالينوس العامود الثاني للطب الإغريقي بعد أبقراط كان يتبع الدولة الرومانية، وإن كان يوناني العنصر والثقافة، ونفس الشيء ينطبق على ديسوقريدس[٢٤].

وفي عام ٤٣١م بعد أن اتخذ مجلس أفيسوس الكنسي قراراً بطرد نسطوريوس من رأس الكنيسة في القسطنطينية [٢٥] هو وأتباعه لاختلافات عقدية (ومنذ هذا الزمن عرفوا بالنساطرة)، هاجر هؤلاء أولاً إلى آسيا الصغرى حيث كوّنوا لهم مدرسة في مدينة الرها(أوديسا) في شتى مجالات العلم ومنها الطب حيث برزوا فيه، وبعد قفل هذه المدرسة من قِبل الحكام البيزنطيين هاجر كثير منهم إلى فارس حيث حمل هؤلاء النساطرة لواء الطب الإغريقي إلى أن فتح المسلمون فارس.

لهذا فعندما نتحدث عن الطب الإغريقي فإننا نتحدث عن الطب الذي ساد خلال عصر الإغريق والبطالمة والرومان والبيزنطيين والجزء الأخير من حضارة فارس قبل الفتح الإسلامي.

٣- استقينا المعلومات الأساسية عند التحدث عن الطب الإغريقي من المصادر العربية التراثية وخاصة كتاب ابن أبي أصيبعة " عيون الأنباء في طبقات الأطباء"[٢٦] والفهرست لابن النديم وغيره [٢٧]؛ لأننا وددنا أن نبين وجهة نظر الكُتَّاب العرب القدماء في الطب الإغريقي ومنشئه وفيما يخص الجزء الأسطوري منه، وخاصة أن هذا الطب هو الذي تبناه العرب، فإذا كان الإغريق وضعوا الجزء النظري منه فإن العرب والمسلمين أكملوا الجزء النظري، ووضعوا الجزء العملي منه كعلم وصنعة كما سيتبين لنا خلال هذا الكتاب.

نشأة الطب عند الإغريق وارتباطه بالحضارات السابقة:

الطب عند الإغريق مثله مثل الطب عند الشعوب القديمة يتكون من جزأين: جزء أسطوري خرافي يرتبط بالقوى الخارقة والشعوذة، وجزء واقعي موضوعي بُنِيَ على المعرفة المتوارثة. وعند التعرف على كلا الجزأين سيتبين لنا مدى ارتباط الطب الإغريقي بطب الحضارات السابقة له، وخاصة الحضارة البابلية والهندية، كما ويرتبط بدرجة أكبر بالطب المصري القديم. فالطب الإغريقي وكذا الحضارة الإغريقية لم تنبت شيطانية أو من العدم، ولا حتى من رأس زيوس.

أسقلبيوس والأسطورة في الطب الإغريقي:

والشخصية الأسطورية الأولى في الطب الإغريقي وهو أسقلبيوس، وما هو إلا إعادة صياغة للشخصية الأسطورية الأولى في الطب المصري القديم ألا وهو شخصية أمحوتب[٢٨].

مَن أسقلبيوس هذا؟

قد تكون هذه الشخصية قد وُجدت بالفعل وعاشت في العصور اليونانية القديمة في أحد مدن الشام أو آسيا الصغرى، ومارست الطب وبرعت فيه، وقد تكون قُتِلَتْ بصاعقة أثناء مزاولتها لعملها.

أما الأسطورة اليونانية فتقول: إن أسقلبيوس هذا برع في الطب إلى درجة أن عدد الموتى قد قَلَّوا، وبالتالي أقفر العالم السفلي من السكان؛ مما دعا بلوتو -إله العَالم السفلي- أن يشكو هذا الحال إلى زيوس (كبير الآلهة)، الذي قام بدوره بقتل أسقلبيوس بالصاعقة، ولكنه ندم على فعلته هذه، فرفعه إلى درجة إله[٢٩].

وقد انتشرت هذه الأسطورة مع مرور الوقت في جميع أنحاء اليونان والمناطق الواقعة تحت تأثير الثقافة الإغريقية، وظهرت عبادة أسقلبيوس حيث بدأ المرضى والأصحاء يقدِّمون القرابين له ضمن طقوس معينة تُجرى في معابد محددة سميت " أسقلبيا "، وقد انتشرت هذه المعابد في جميع أنحاء اليونان ليصل عددها إلى مئتي معبد. وتبدأ طقوس هذه المعابد بوصول المريض إلى ساحة المعبد حيث يقوم أولاً بالاطلاع على ما كتبه المرضى الذين سبقوه إلى المعبد وكيف شفوا من أمراضهم، ثم يبدأ المريض بالقيام ببعض الطقوس وتقديم الصلوات والقرابين، بعد ذلك يتوجه إلى مذبح المعبد ويستعد للنوم وهو ما يسمى " نوم المعبد "، حيث يطفئ مساعدو الكاهن المشاعل ويبدؤون بالتراتيل والمراسم الصلواتية، وفي هذه المرحلة يكون المريض تحت إيحاء شديد في مرحلة هي بين

الوعي وعدم الوعي، حيث يشعر بأنه يحلم حلماً، وغالباً ما يكون فحواه عن زيارة أسقلبيوس هذا للمريض ونصحه إياه بطريقة العلاج المقترحة، وعندما ينهض المريض من إغفاءته يخبر الكاهن بالحلم الذي يقوم بتفسيره واتباع طريقة العلاج المقترحة في الحلم. وإذا لم يحلم في اليوم الأول فإنه يحاول ذلك في الأيام التالية، وقد يساعده الكاهن بإعطائه جرعات من مواد مخدرة وتكثيف جرعة التراتيل والإيحاء. وإن أصر المريض على عدم الحلم فإنه يُعتبر غير مؤمن ويُطرد من المعبد.

وتعتبر الليلة الأولى للمريض في المعبد مؤثرة، وخاصة عندما ينتقل الكاهن ومساعدوه من مريض لمريض وهو بين الصحو والنوم، ومعهم ما يطلقون عليه الثعبان المقدس يلعق الجروح، وكثيرون كانوا يتصورون الكاهن ومساعديه بصورة أسقلبيوس وأبنائه الثلاثة "تلسفورس" و "بودااليرس" و "مخيون" وابنتيه" بانيسيا" و"هيجيا" وهم يطوفون بهم.

نظرة العرب المسلمين إلى أسقلبيوس هذا:

لقد اعتبروه رجلاً جليلاً وعالماً كبيراً، وأول من مارس الطب من اليونانيين، ولنلاحظ هنا أنهم اعتبروه أول من مارس الطب من اليونانيين، وليس أول من مارسه من ذرية آدم، وأنه رأس ذرية سيطرت على الحياة الثقافية في اليونان؛ فمنهم كان الأطباء والفلاسفة وأهل السياسة والعسكرية.

وأهم نقطة نلاحظها في نظرتهم إليه أنه لم يؤسس الطب في العالم، بل أخذه عن غيره، وأنه كان تلميذاً وتابعاً لهرمس، ويدَّعون أن هرمس هذا هو

إدريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم[٣٠]. وأنه ولد بمنف في مصر وخرج أسقلبيوس معه من الهند وذهبا معاً إلى بابل[٣١]. فكونهم جعلوا أسقلبيوس تلميذاً لهرمس، وجعلوه في الوقت نفسه رأس أسرة انتسب إليها جميع فلاسفة وعلماء وأطباء الحضارة الإغريقية، فكأنهم يقولون إن جذور الحضارة الإغريقية تتبع من حضارة مصر القديمة وحضارة الهند القديمة وحضارة بلاد النهرين.

لنقرأ هذا النص الذي أورده ابن أبي أصيبعة في "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" بتمعن:

كتب ابن أبي أصيبعة: "وأما أبو معشر البلخي المنجم فإنه ذكر في كتاب الألوف أن أسقلبيوس هذا لم يكن بالمتأله الأول في صناعة الطب ولا المبتدئ بها، بل عن غيره أخذ، وعلى نهج من سبقه سلك. وذكر أنه كان تلميذ هرمس المصري"[٣٢].

بل جعلوا الهرامسة ثلاثة وليس واحدا فقط:

"هرمس الأول.... وإن جده كيومرث وهو آدم علمه ساعات الليل والنهار وهو أول من بنى الهياكل ومجد الله فيها، وأول من نظر في الطب وتكلم فيه....، وكان مسكنه صعيد مصر، وأشار إلى صفات العلوم لمن بعده برسوم؛ حرصاً منه على تخليد العلوم لمن بعده...

وأما هرمس الثاني فإنه من أهل بابل... وكان بارعاً في علم الطب والفلسفة، وعارفاً بطبائع الأعداد، وكان تلميذه فيثاغورس الإرتماطيقي. هرمس

هذا جدد من علم الطب والفلسفة وعلم العدد عندما كان يدرس بالطوفان ببابل،.....، أما هرمس الثالث فإنه سكن مدينة مصر وكان بعد الطوفان، وهو صاحب كتاب "الحيوان ذوات السموم"، وكان طبيبا فيلسوفا، عالما بطبائع الأدوية القتالة والحيوانات المؤذية، وكان جوّالاً في البلاد؛ طوّافا بها... وكان له تلميذ يعرف بأسقلبيوس وكان مسكنه بأرض الشام [٣٣].

بهذا اعتبر العرب أسقلبيوس أول طبيب من اليونانيين تكلم في الطب وليس أول من مارس الطب من البشر، وعلى هذا الأساس فقط أعطوه حقه من التقدير والاحترام، واعتبروه من أعظم من مارس الطب، وأول أقدر ثمانية في الطب اليوناني الذين هم جميعهم من ذريته. يقول يحيى النحوي: " الأطباء المشهورون الذين كان يُقتدى بهم في صناعة الطب من اليونانيين على ما تناهى إلينا ثمانية وهم: أسقلبيوس الأول وغورس وميينس وبرمانيدس وأفلاطن الطبيب وأسقلبيوس الثاني وأبقراط وجالينوس " [٣٤].

ويعتبر العرب أن جميع الأطباء اليونانيين الأوائل كانوا من نسل أسقلبيوس حيث إنه بعد أن شرع في تعليم الطب لأبنائه وأقاربه عهد إليهم ألا يعلموا هذه الصناعة لأحد إلا لأولادهم ولمن هو من نسل أسقلبيوس لا غير[٣٥].

أبقراط وعلم الطب الإغريقي:

ذاك كان الجانب أو الجزء الأسطوري من قصة الطب الإغريقي، ولننظر الآن إلى الجزء الموضوعي من هذا الطب الذي بدأ بأبقراط الذي سمي بأبي

الطب، وإن كان يجب أن يسمى مع كل الاحترام والتقدير له "بأبي الطب الإغريقي".

لقد استمر الطب الإغريقي في سلالة أسقلبيوس يعلّمه الآباء للأبناء والأجداد للأحفاد لا يخرج من بيتهم هذا، وكان التعليم شفاهة وليس كتابة. وحصل خلاف بين الورثة بعد ذلك وانقسموا إلى فرق:

الفرقة الأولى: فرقة "ذيوفيلس"، وتقول: إن المعرفة والتعليم يكون بالقياس وحده.

الفرقة الثانية: فرقة "أفرن"، وتقول بالتجربة وحدها (يقصدون المعرفة التي تتجمع بالمحاولة والخطأ).

الفرقة الثالثة: فرقة "ثاسلس" وتقول بالحيل، وذكر أن الطب إنما هو حيلة[٣٦].

ثم جاء أفلاطن الطبيب وترتيبه الخامس من الأطباء المشهورين في ترتيب يحيى النحوي، فوجد أن الأخذ بالتجربة وحدها خطأ وخطر، والقياس وحده لا يصح، فأخذ بالرأيين جميعاً وألغى الحيل من طبهم، وانتهى الطب إلى ثلاثة أماكن لتعليمه بالتناقل شفاهة هي: مدينة رودس ومدينة قنيدس ومدينة قو (أو قوص أو كوس).

وقبيل ظهور أبقراط كان وضع هذه المدارس على الوجه الآتي:

التعليم في رودس: اندثر لأنه لم يكن هناك وارث من عائلة أسقلبيوس.

أما في مدينة قنيدس: فطفئ لأن الوارثين له كانوا نفراً يسيراً.

وفي مدينة قو: وهي التي كان يسكنها أبقراط فثبت وبقيت له بقايا يسيرة.

وظهر أبقراط فرأى أن أهل بيته (آل أسقلبيوس) قد اختلفوا في صناعة الطب، وتخوف أن يكون ذلك سبباً لفساد الطب فعمد إلى تدوينه في الكتب، كما وجد أن صناعة الطب قد تنتهي لقلة الأبناء المتوارثين لها من سلالة أسقلبيوس، فرأى أن يذيعها في جميع الأرض وينقلها إلى سائر الناس ويعلمها المستحقين لها حتى لا تبيد[٣٧]. ولشعوره أن الطب قد يفسد إذا خرج من عائلة أسقلبيوس إلى غيرهم، إذ قد يصل إلى من هو ليس أهلا له، فوضع عهداً استحلف فيه المتعلم لها وممارسها بما يعرف إلى اليوم "بقسم أبقراط"[٣٨] وهو قسم يقسمه جميع خريجي كليات الطب في العالم. وقد أورد ابن أبي أصيبعة "عهد أبقراط" أو قسمه هذا كاملاً في كتابه "عيون الأنباء في طبقات الأطباء":

عهد أبقراط:

نستطيع أن نجزئ هذا العهد بعد الحلف بالله رب الحياة والموت، وواهب الصحة وخالق الشفاء وكل علاج... إلى أربعة أجزاء:

الجزء الأول: يحدد العلاقة بين الطبيب المبتدئ وأستاذه:

فعلى الطبيب أن يضع معلمه في مرتبة توازي مرتبة آبائه من حيث الاحترام والوصل بالمال والمساعدة، وأن يعتبر أبناء معلمه مثل إخوته يعلمهم الصنعة إن أرادوا بدون أجرة ولا شرط.

الجزء الثاني: يحدد العلاقة بين الطبيب والمريض:

- أن يقصد في جميع التدابير مصلحة المريض بقدر طاقته، ومعنى هذا أن مصلحة المريض فوق كل اعتبار آخر بالنسبة للطبيب.

- وأن يبعد عن كل ما يضر المريض حسب ما يراه الطبيب.

- وأن لا يقوم بأي عمل إن لم يكن في مجال عمله وتخصصه حيث يقول: " ولا أشق أيضاً عمن في مثانته حجارة، ولكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل ".

الجزء الثالث: يحدد العلاقة بين الطبيب وشرف المهنة:

- ولا يعطي إذا طلب منه دواء قتّالاً ولا يشير أيضاً بمثل هذه المشورة.

- ولا يعطي النساء دواء يسقط الجنين.

الجزء الرابع : يحدد السلوكيات العامة للطبيب ولا يحيد عنها :

- سرية المعلومات التي يتوصل إليها الطبيب سواء عن المرض و المريض أو عن بيته وأهل بيته.

- أن يحفظ نفسه في تدبيره وصناعته على الزكاة والطهارة.

- عندما يدخل البيوت إنما يكون غرضه معالجة المرضى فقط بنيّةٍ سليمةٍ بعيدا عن أي غرض فيه فسادٌ أو جورٌ أو ظلمٌ لأي كان رجلا أو امرأة، حرا أو عبدا.

- أن يسعى إلى إرضاء الناس بحيث يُحمد على أعماله.

ولكن من هو أبقراط هذا؟

هو أبقراط بن أيراقليدس (هيبوقراط بن هيراكليدس):

ولد عام ٤٦٠ قبل الميلاد في مدينة قو (جزيرة كوس أو قوص) القريبة من شاطئ آسيا الصغرى، من أب يرجع نسبه إلى أسقلبيوس كما مر معنا ومن أم يرجع نسبها إلى أيرقليس، تعلم صنعة الطب على أبيه أيراقليدس وجده أبقراط الأول، وأيضاً على هيروديكوس السليمبري[٣٩]. دخل تاريخ الطب بعدة مغالطات تاريخية: فقد لقبوه بأبي الطب، وادعوا أنه أول من دوّن صنعة الطب وأثبتها في الكتب، ونسبوا قسم الطب أو عهد الطب إليه وهذا كله غير صحيح، وقد مرّ إثبات هذا عندما تحدثنا عن الطب في مصر القديمة وبلاد النهرين والصين والهند.

إذن نستطيع أن نطلق عليه "بأبي الطب الإغريقي" وأول من دوّن الطب الإغريقي في الكتب، وعلى الرغم من هذا يجب علينا أن لا نقلل من قيمته العظيمة في تاريخ الطب بأي حال من الأحوال، فهو يعتبر أحد أكبر أطباء التاريخ، ومن واضعي أسسه النظرية، فعلى الرغم من أنه وُلد ونشأ في قو (جزيرة كوس) حيث يوجد فيها أحد أشهر معابد العلاج المسماة "أسقلبيا" التي مرّ ذكرها وذكر طريقة العلاج الخرافية فيها؛ فإنه أول من أبعد الطب من هذه النظرة التي تربط الطب بقوى خارقة وبالسحر وحركة الكواكب والتعاويذ والكهنة

والكهانة، وقام بربطه بفلسفة عقلانية طبيعية تقوم على الملاحظة والتأمل العقلاني في البحث عن المسببات، مع عدم إبعاد الطب عن القيم الأخلاقية التي تدعو إليها الأديان.

وفي اعتقادي أن هذا أهم إنجاز لأبقراط في تاريخ الطب البشري.

واشتهر أبقراط بالمهارة في الطب وذاع صيته في حياته وطلب وده الملوك والحكام. يقول ابن النديم في فهرسه: " كان أبقراط في أيام بهمن بن أردشير، وكان بهمن اعتل، فأنفذ إلى أهل بلد أبقراط يستدعيه، فامتنعوا من ذلك، وقالوا إن خرج أبقراط من مدينتنا خرجنا بأجمعنا وقتلنا دونه"[٤٠] وكان صديقا لفلاسفة عصره مثل ديمقريطس وجورجياس وغيرهم. وهو وحيد دهره الكامل الفاضل المبين المعلم لسائر الأشياء، الطبيب الفيلسوف، وقوّى صناعة القياس والتجربة قوة عجيبة[٤١].

ومن أقوال أبقراط: "الجسد يعالج جملة على خمسة أضرب: ما في الرأس بالغرغرة وما في المعدة بالقيء وما في البدن بإسهال البطن، وما بين الجلدين بالعرق، وما في العمق وداخل العروق بإرسال الدم"[٤٢].

مؤلفات أبقراط:

اعتمد أبقراط ثلاث طرق في تأليف كتبه وبالتالي في التعليم:

أولاها على سبيل اللغز.

وثانيتها على غاية الإيجاز والاختصار.

وثالثتها على طريق التساهل والتبيين.

وحسب المصادر العربية فإن كتب أبقراط الصحيحة التي وصلت إلى العرب نحو ثلاثين كتاباً. والذي يجب أن يدرسه لمن يريد أن يتعلم صنعة الطب، إذا كان درسه من أصل صحيح وترتيب جيد اثني عشر كتاباً وهي المشهورة من سائر كتبه[٤٣]. وقد أورد بعضها ابن النديم في فهرسه[٤٤].

أما المصادر الغربية فإنها ترفع عدد مؤلفات أبقراط إلى رقم أعلى من ذلك بكثير حيث جعلها " ليتريه " تبلغ اثنين وسبعين مؤلفا[٤٥].

وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته فمن قال: "عام ٣٨٠ قبل الميلاد"، ومن قائل: "٣٧٠ قبل الميلاد "، والبعض أكد أنها " ٣٩٠ قبل الميلاد "، وأما سبب موته فقد أورده ابن أبي أصيبعة بأنه الفالج[٤٦].

جالينوس (١٣٠-٢٠١م):

بعد ستمئة وخمس وستين سنة من وفاة أبقراط حسب المصادر العربية[٤٧]. وخمسمئة عام حسب المصادر الغربية إذا اعتبرنا أن أبقراط توفي في عام (٣٧٠ قبل الميلاد) ظهر جالينوس ثاني أشهر طبيب بعد أبقراط في الطب الإغريقي وأحد أشهر أطباء البشرية، وانتهت إليه الرياسة في عصره وهو الثامن من الرؤساء الذي أولهم أسقلبيوس وسابعهم أبقراط حسب ما مر بنا قبل ذلك، وتأثيره في الطب الإغريقي كبير.

وهو الروماني التبعية الإغريقي العنصر والثقافة، فهو من نسل أسقلبيوس، وعندما ظهر وجد صناعة الطب قد كثرت فيها أقوال الأطباء السوفسطائيين وانمحت محاسنها فانتدب لذلك وأبطل آراء أولئك، وأيّد رشيد كلام أبقراط وآراءه وآراء التابعين له. لم يأت بعده من الأطباء إلا من هو دون منزلته ومتعلم منه[٤٨].

ولد جالينوس في مدينة برغامس (برغامون) في آسيا الصغرى شرق القسطنطينية، وكان أبوه مهندساً تعلم منه الهندسة، ومن بعض النحاة اللغة والنحو وبرع فيهما، وتعلم الطب على أرمينس الرومي، وأخذ من أغلوقن وغيرهم، ودرس الطب أيضاً على امرأة تدعى قلاوبطرة، وأخذ منها أدوية كثيرة وخاصة ما يتعلق بعلاجات النساء، وكان كثير الترحال بحثاً عن المعرفة والعلم ومعالجة المرضى، فشخص إلى أثينا وروما والإسكندرية، وزار أسيوط في صعيد مصر لينظر في عقاقيرها ولا سيما الأفيون. وفي طريقه إلى الشام من مصر، مات في مدينة الفرما في آخر أعمال مصر[٤٩].

وقد قام جالينوس بتأليف عدد كبير من الكتب في مجال الطب، بالإضافة إلى تفسيراته وشروحاته لكتب أبقراط التي تُرجمت جميعها إلى العربية، وعناوين كتبه موجودة في الفهرست الذي عمله حنين بن إسحاق [٥٠].

وقد أثبت ابن النديم في فهرسه الستة عشر كتابا التي يقرؤها المتطببون على الولاء[٥١]. كما أثبت غيرها من كتبه والتي أسماها الكتب الخارجة عن الستة عشر.

وهذه الكتب الستة عشر وصلت إلينا جميعها باللغة العربية، والذي وصل منها باللغة الأصلية اليونانية القديمة فعلاً تسعة كتب والسبعة الأخرى فقدت، فلجأ الأوروبيون إلى النسخ العربية وتمت ترجمتها إلى الألمانية ومنها إلى اللغات الأخرى(٥٢).

وجالينوس لم يكن طبيباً فقط مثل أبقراط؛ فله أيضاً إسهامات في الفلسفة والنحو والرياضيات والهندسة وكتب كمّاً كبيراً من الكتب، فحسب أقواله أنه كتب مئة وخمسة وعشرين كتاباً في الفلسفة والرياضيات والنحو والقانون، وعلى الرغم من فقْد ثلاث وأربعين كتاباً له في الطب إلا أن ثلاثة وثمانين كتاباً لجالينوس وصلت إلى عصرنا بالإضافة إلى عدد كبير من المقالات والتأليفات المنسوبة له(٥٣).

وقد فقد جزء كبير من كتبه أثناء حياته في الحريق الذي نَشَب في معبد السلام في روما، مما كان له كبير الأثر على جالينوس وخاصة أن كثيراً منها لم توجد نسخ أخرى لها.

وفي تاريخ الطب لم يتسنَّ لطبيب أن يؤثر فيه مثل ما تسنى لجالينوس، ومع ذلك هوجم من كثير من كبار أطباء الحضارة العربية الإسلامية وعلى رأسهم طبيبنا الكبير ابن النفيس حيث وصفه بالعَيّ والإسهاب الذي ليس تحته طائل.

وحسب المصادر الغربية فإن جالينوس توفي في صقلية حوالي عام ٢٠١م.

سمات الطب الإغريقي وأهم إنجازاته النظرية والعملية:

اكتفينا هنا بإيجاز سيرة أبقراط وجالينوس فقط لأنهما يمثلان الطب الإغريقي أفضل تمثيل، وقد انتبه العرب لهذه الحقيقة فوضعوهما في الترتيب السابع والثامن في قائمة رؤساء أطباء الطب الإغريقي كما مر معنا، على الرغم من أن الفاصل بينهما يصل إلى الخمسمئة عام. فأبقراط يمثل ذروة الطب الإغريقي الذي وصل إلى نقطة لم يصلها مرة أخرى إلا بعد خمسمئة عام بظهور جالينوس، فجميع الأطباء الذين ظهروا بينهما إما ناقلون ومفسرون لأبقراط أو قادوا الطب إلى مزيد من الفلسفة والسفسطائية، وبعد جالينوس لم يظهر طبيب في مستواهما، بل بدأ نور علم الطب يخبو إلا من ومضات ضعيفة في فارس وآسيا الصغرى إلى أن جاء الأطباء العرب فتحول قبس النور هذا إلى شمس ساطعة.

فأبقراط بالرغم من أن جميع المؤرخين أجمعوا على كونه شخصية واقعية (مع أن كثيراً من الأساطير حيكت حوله -منها أن النحل الذي يحيا حول قبره ينتج عسلا شافيا من كل الأمراض- فإن الكثير منهم شككوا في نسبة الكتب التي ظهرت باسمه إليه، حيث إنهم نسبوا بعضها إلى من قبله، وبعضها إليه نفسه وكثير منها إلى من بعده)[٥٤]، مما يجعل أبقراط ممثلاً لعصر كامل، كما أن بعضاً من هذا ينطبق على جالينوس حيث ظهرت كتب نسبت إليه أثناء حياته، ولم يكن هو مؤلفها.

النظرية الأساسية في الطب الإغريقي (الأبقراطي) تقوم على قاعدة الأخلاط الأربعة التي تنص على أن جسم الإنسان يحتوي على الدم والبلغم والمرارة الصفراء والمرارة السوداء، وأن الجسم يكون في صحة تامة عندما تكون

النسب بين هذه الأخلاط منسجمة وفي حالة توازن تام (ألا يذكرك هذا بنظرية الأخلاط الثلاثة لدى الطب الهندي، ونظرية العناصر الخمسة والقوتين الاثنتين لدى الطب الصيني؟).

ويظهر الألم إذا حدث اضطراب في نِسب أحد هذه الأخلاط سواء بالنقص أوالزيادة أو بقي معزولاً غير ممتزج بالأخلاط الأخرى. فالصحة تكون عندما تكون هذه الأخلاط في مزيج متناسب، بينما تظهر الأمراض عندما يكون المزيج غير متناسب.

وكما أن الأخلاط عددها أربعة فإن العناصر الأساسية عددها أربعة وهي التراب والهواء والنار والماء. والطبائع أيضاً عددها أربعة: الجفاف والبرودة والحرارة والرطوبة.

وكما أن الأمراض تظهر عندما تضطرب النسب في مزيج الأخلاط، فإنها يمكن أن تظهر بعامل خارجي، مثل التغييرات في البيئة المحيطة بالمريض، فإذا زاد أحد الطبائع، مثل الجفاف والبرودة أو الحرارة أو الرطوبة عن المعدل في بيئة الإنسان فإنه يؤدي إلى ظهور المرض. وأضاف جالينوس إلى نظرية أبقراط هذه بأنه وصف الأخلاط بما يقابلها من الطبائع على النحو التالي:

الدم: حار ورطب

البلغم: بارد ورطب

المرارة الصفراء: حار وجاف

المرارة السوداء : بارد وجاف

وتستمر نظرية أبقراط في تفسير المرض والصحة وعلاقتهما بنسب الأخلاط والطبائع، فهي تنص على أنه عندما يمرض الإنسان يكون لديه ميل طبيعي للشفاء والنقاهة.

فهناك ميل طبيعي في أجسام الأحياء في إعادة الاضطراب -الذي ظهر في مزيج الأخلاط، وبالتالي سبَّبَ المرض- إلى وضعه الطبيعي عن طريق التخلص من المادة الزائدة. فحسب هذه النظرية: الحرارة والحمى والعرق والقيء والإسهال وغيرها من الأعراض ما هي إلا محاولة من الجسم للتخلص من المادة الزائدة للوصول إلى الصحة عن طريق إعادة ترتيب الأخلاط، وبالتالي تكون هذه الأعراض عوامل مساعدة للجسم في الوصول إلى هذا الغرض وليست ضارة.

والمرض في اعتقادهم ليس معاناة الجسم فقط، بل هو كدُّه وكدحه للوصول إلى حالة التناسق والتناسب بين الأخلاط، وعلى الطبيب أن يساعد الجسم في هذه العملية لا أن يوقفها.

وحسب هذه النظرية يكون تقيح الجروح خطوة ضرورية لشفائها عن طريق التخلص من المادة الزائدة، وإذا لم يتقيح الجرح كان على الطبيب أن يساعد على تقيحه، وقد عارض طبيبنا الكبير ابن سينا ذلك، وقال بأن الجرح يجب أن يحفظ نظيفاً لكي يشفى.

المعرفة التشريحية في عهد أبقراط -ولدى أبقراط نفسه- كانت قاصرة؛ ويرجع ذلك إلى أن تشريح الإنسان كان غير مسموح به في ذلك الوقت، وليس لدينا دليل أن أبقراط قد مارسه، ونعتقد أن معلوماته التشريحية توصل إليها عن طريق ملاحظته للذبائح التي تقدم كقرابين في المعابد.

فمن كتابات أبقراط يظهر أن معرفته التشريحية ضعيفة، وكذلك علمه وعلم معاصريه عن علم الأجنة.

قبيل عصر جالينوس سمح بالتشريح ولكن لفترة قصيرة، حيث منع بعد ذلك. وهناك اعتقاد بأن جالينوس مارس بعض التشريح على الإنسان، ولكن معظم معرفته التشريحية وصل إليها من التشريح المقارن على الحيوان، فقد شرّح كثيراً من القردة والخنازير، وعلى الرغم من أن معرفته التشريحية أفضل بكثير من أبقراط -وهو واضع عدة مؤلفات في التشريح، التي اعتبرت المصدر الرئيس لمادة التشريح لمئات من السنين- فإن هذه المعرفة كانت ناقصة وقاصرة ومضطربة إذا قورنت بالمعرفة التشريحية التي وصل إليها أطباء مصر القديمة.

وهذه المعلومات الناقصة والقاصرة عن علم التشريح أدت إلى استنتاجات خاطئة عن علم وظائف الأعضاء (الفسلجة)، خاصة ما يخص الجهاز الدوري سواء عند أبقراط أو جالينوس أو عند الأطباء الإغريق الذين عاصروهما. وهذا لا يمنع أن "الفسلجة" وصلت في عصر جالينوس إلى تطور كبير مقارنة بعصر أبقراط، وخاصة فيما يخص الجهاز الهضمي، فمثلاً وصف جالينوس المعدة بأنها عندما يصل الطعام إليها تهيئه للهضم ثم ترسله إلى الأمعاء الدقيقة...

وهو يصف عملية التنفس تقنياً وصفاً دقيقاً بأنه ناتج انقباض عضلة الحجاب الحاجز وعضلات القفص الصدري، ولكنه يبتعد عن الدقة العلمية الموضوعية ويقترب من الفلسفة والتأمل التجريدي عندما يجعل النفس أو الروح تدخل جسم الإنسان آتية من عالم الأرواح خلال عملية التنفس مارة بالقصبة

الهوائية، ثم يصف دورة هذه الروح خلال جسم الإنسان، ووصفه هذا يدل على معرفة ضحلة بالجهاز الدوري.

على العكس من هذا كانت معلوماتهم عن الجهاز العصبي، فأبقراط وصف وظيفة المخ وصفاً دقيقاً مخالفاً بذلك أراء معاصريه مِمَّنْ خالفه، حيث اعتبروا أن القلب هو مركز الشعور والوعي، بينما أتى أبقراط فقال: إن المخ هو المسؤول عن سعادتنا وفرحنا وحزننا، ألمنا ودموعنا، واعتبره أقوى عضو في جسم الإنسان حيث العيون والآذان واللسان والأيدي والأرجل تعمل بأوامر من المخ.

(ألا يذكرك هذا عزيزي القارئ بما مر معنا عن الطبيب المصري القديم الذي وصف المخ بوصف مشابه؟ إذا لم تتذكر فارجع مرة أخرى إلى الطب عند المصريين القدماء).

وكما برع أبقراط في وصف المخ برع جالينوس في وصف الجهاز العصبي والأعصاب بدقة علمية كبيرة.

أما موطن قوة الطب الإغريقي الأبقراطي فيقع في الجزء الخاص بالأمراض ووصفها، فأبحاث وكتابات أبقراط وجالينوس في الطب الوصفي الإكلينيكي والجراحي تعتبر قمماً في تاريخ الطب عموماً، وكتابات أبقراط عن الهواء والماء والمرض المقدس وعن الجروح والكسور والتجبير تدل على عقلية علمية دقيقة.

وأبقراط شدد على العوامل الوراثية، وكذلك على تركيبة بنية الشخص، وعلى تأثير الطقس والمناخ، وعلى القوة العلاجية للطبيعة نفسها، وهو لا ينظر إلى الصرع كمرض مقدس مثل معاصريه، بل يعتبره مثل كثير من الأمراض توارثي. اسمعه وهو يقول عن الصرع: " هاأنذا أبدأ ببحث المرض المعروف بالمقدس، وليس هو في رأيي أعرق في الألوهية أو القداسة من سواه من الأمراض، بل له سبب طبيعي، أما ألوهية أصله المزعومة فمردها إلى جهل الناس واستغرابهم بطبائعه الخاصة... وهناك أمراض أخرى لا تقل عن هذا المرض غرابةً وهولاً، ومع ذلك لم يعتبرها أحد مقدسة "[٥٥].

وللإيجاز حيث إنه ليس غرضنا تأريخ الطب الإغريقي كما قلنا سابقاً سنذكر أسماء خمسة كتب فقط لأبقراط، وخمسة أخرى لجالينوس، ومن عناوينها نستطيع أن نكوّن فكرة عن الطب الذي وصلوا إليه.

أسماء خمسة كتب لأبقراط[٥٦]:

١- كتاب الأوبئة، وعرف عند العرب باسم إبيدميا وفسره جالينوس.

٢- كتاب الأمراض الحادة بتفسير جالينوس.

٣- كتاب الكسر(الكسر والجبر) بتفسير جالينوس.

٤- كتاب الماء والهواء بتفسير جالينوس.

٥- كتاب طبيعة الإنسان بتفسير جالينوس.

أسماء خمسة كتب لجالينوس[٥٧]:

١- كتاب المقالات الخمس في التشريح.

٢- كتاب تعرّف علل الأعضاء الباطنة.

٣- كتاب النبض الكبير.

٤- كتاب الحمامات.

٥- كتاب تدبير الأصحاء.

ونختتم هذه الفقرة بقول أبقراط في كتابه الفصول:

"إذا كان النوم في مرض من الأمراض يُحدِثُ وَجعاً، فذلك من علامات الموت، وإذا كان النوم ينفع، فليس ذلك من علامات الموت "[٥٨].

أما من جهة العلاج باستعمال العقاقير في الطب الإغريقي فإن الخزانة الأبقراطية للأدوية كانت فقيرة، خاصة إذا ما قورنت بالخزانة الهندية للعقاقير. وجالينوس نفسه لم يكن ماهراً في وصف الأدوية على الرغم من أنه قد نسب إليه كتاب: "الأدوية التي يسهل وجودها، وهي التي تسمى الموجودة في كل مكان"، ويقول حنين بن إسحاق عنه: "قد أضيف إليه مقالة أخرى في هذا الفن، ونسبت إلى جالينوس، وما هي لجالينوس لكنها لفيلغريوس... كما ألحق في هذا الكتاب هذياناً كثيراً، وصفات بديعة عجيبة، وأدوية لم يرها جالينوس، ولم يسمع بها قط"[٥٩] إلى أن جاء ديوسقريدس (أو دياسقوريدس العين زربي) الذي أغنى مكتبة الطب الإغريقي بكتابه "هيولى

العلاج"، أو كما سماه ابن النديم في فهرسه: كتاب الحشائش" حيث يتضمن ما يزيد على تسعمئة وخمسين عقاراً مع بيان مصادرها في خمس مقالات. وأضاف إليها مقالتين في الدواب والسموم وإن كان البعض يقول: إن المقالتين منحولتان إليه[٦٠].

يصفه ابن أبي أصيبعة قائلاً: "ودياسقوريدس العين زربي صاحب النفس الزكية النافع للناس المنفعة الجلية، المتعرب المنصور السائح في البلاد، المقتبس لعلوم الأدوية المفردة من البراري والجزائر والبحار المصور لها المجرب المعدد لمنافعها قبل المسألة من أفاعيلها"[٦١]. ويكتب عنه ابن النديم في الفهرست وصفا مماثلاً: "ديسقوريدس العين زربي ويقال له: السائح في البلاد. ويحيى النحوي يمدحه في كتابه في التاريخ، ويقول: تفديه الأنفس، صاحب النفس الزكية النافع للناس المنفعة الجليلة المتعوب المنصوب، السائح في البلاد، المقتبس لعلوم الأدوية المفردة من البراري والجزائر والبحار، والمصور لها، المعدد لمنافعها قبل المسألة عن أفاعيلها ... "[٦٢].

وضع الطب قبيل ظهور الإسلام

كما مر معنا فإن جذور الطب الإغريقي تقع في مصر القديمة وبلاد النهرين والهند، واستمر طب هذه الأمم القديمة استمراراً معنوياً من خلال استمرارية الطب الإغريقي، ثم الطب العربي، ثم الطب الحديث، وإن اندثر الأصل باندثار وسقوط الحضارات القديمة في مصر وبابل، وبقي مدفونا مع بقية آثار هذه الشعوب إلى أن اكتشفت في العصر الحديث، فتعرفنا على هذه الحضارات من أصولها وكيف سادت ثم بادت.

أما طب الهند فقد بقيت له بقايا في الهند، وكما أثّر أيضاً في الطب العربي بطريق غير مباشر عن طريق الطب الإغريقي؛ فإنه كان له تفاعل مباشر مع الطب العربي كما بينا ذلك، ولهذا الطب الهندي التقليدي بقايا إلى يومنا هذا.

والطب الصيني الذي لم يكن له تأثير مباشر يذكر في الطب الإغريقي -لانكفاء الحضارة الصينية على نفسها واكتفائها بذاتها داخل حدودها، واقتصار تأثيرها على منطقة الشرق الأقصى فقط- إلا أنه هناك اتصال مباشر قد تم بين طب الصين والطب العربي في العصور اللاحقة، كما بينا ذلك.

والطب الإغريقي الذي ساد في الدول المحيطة والقريبة من شبه الجزيرة العربية مهد الإسلام بدأ قوياً في بلاد اليونان، معتمداً على محصلة المعرفة التي

توصلت إليها حضارات الأمم السابقة، وعلى الدفعة القوية التي حصل عليها بظهور أبقراط وتلاميذه، واعتمادهم الفلسفة العقلانية القائمة على التأمل والتجرد في تفسير ظواهر الطب، ومحاولة حل معضلاته بعيداً عن الأساطير والخرافات.

وعندما بدأ إشعاع هذه الحضارة يخبو قليلاً في أثينا ظهرت مراكز أخرى مثل أنطاكية والإسكندرية، وقد لعبت الإسكندرية دوراً كبيراً في استمرارية الحضارة الهيلينية والطب الإغريقي بمدرستها التي درّس فيها عدد كبير من أطباء الطب الإغريقي أشهرهم جالينوس.

ومكتبتها الضخمة التي احتوت في يوم من الأيام على أربعمئة ألف مجلد، بل هناك من يرفع هذا العدد إلى سبعمئة ألف مجلد[٦٣]. وقد فقدت هذه الذخيرة الضخمة من المعرفة المدونة في الكتب على ثلاثة مراحل:

الأولى: عن طريق الرومان عند احتلالهم للإسكندرية بقيادة يوليوس قيصر عام (٤٨م)، حيث دمر جزءاً منها.

الثانية: عن طريق الرومان أيضاً بقيادة أورليان عام (٢٧٣م) ودمر جزءاً آخر منها.

الثالثة: بسبب التعصب الديني بقيادة الأسقف تيوفيلوس وأتباعه عام (٣٨٩م) في حملتهم ضد الوثنية باعتبار هذه الكتب نتيجة للفكر الوثني، حيث تم تدمير البقية الباقية.

أما الفرية التي تقول بأن المسلمين قاموا بحرق مكتبة الإسكندرية فقد أثبت المؤرخون أن لا أساس لها من الصحة[٦٤].

وبهذا فقدت الإسكندرية مركزها الحضاري، وخاصة أن كثيراً من علمائها وأطبائها قد هاجروا إلى مناطق حكم فارس؛ هرباً بعقائدهم من التسلط البيزنطي.

أما روما فقد فقدت نفوذها عندما قرر الإمبراطور قسطنطين (عام ٣٢٦م) جعل المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية، ونقل العاصمة من روما إلى الشرق إلى بيزنطة (القسطنطينية). انتهت روما تماماً كعاصمة عالمية وكمجمع لثقافات الشرق والبحر المتوسط تحت هجمات البرابرة الآتين من الشمال فسقطت مؤقتاً ونهبت عام (٤١٠م) من قبل الفيزيقوطيين[٦٥]، ثم سقوطها النهائي عام (٤٧٦م) من قبل الجرمانيين بقيادة " سكير أودواكر" [٦٦]. لتدخل غياهب ظلومات العصور الوسطى الأوروبية وتختفي الكتب في أقبية القصور والأديرة.

وتحاول بيزنطة رفع لواء المعرفة الطبية والحضارة الإغريقية، ولكن برايات مُنكّسة، وسرعان ما تدخل بيزنطة صراع الأحقاد والتعصب المذهبي، وقد مر بنا كيف أن مجلس الكنيسة في بيزنطة (القسطنطينية) قرر طرد نسطوريوس من رأس الكنيسة هو وأتباعه لاختلافات عَقَدية تخص طبيعة المسيح وطبيعة مريم العذراء، ثم تسلطت الكنيسة البيزنطية على كل من خالفها في عقيدتها، فمزقت الاختلافات المذهبية البيزنطيين، مما أدى إلى إهمال العلوم والفنون والحرف، واختفت مرة أخرى كتب الحضارة الإغريقية بما فيها المؤلفات الطبية في أقبية

القصور والأديرة، بالإضافة إلى هجرة العقول إلى الشرق ومعها بعض الخبرات وبعض الكتب، فاستقر النساطرة أولاً في مدينة الرها (أوديسا) وأنشؤوا لهم مدرسة في شتى مجالات المعرفة، ولكن تحت تأثير رجال الكنيسة في بيزنطة قام الإمبراطور "زينو" بغلقها وطرد أساتذتها، فلم يتبق لهم إلا الهجرة مرة أخرى. في هذه الفترة عرض ملك فارس (كوباد) عليهم الهجرة إلى فارس، فقبل كثير من النساطرة العرض واستقروا في مدينة "جنديسابور" غرب فارس، وسمح لهم بممارسة عقائدهم بحرية تامة، وقاموا بإنشاء مدرسة في شتى مجالات المعرفة، وترجموا عدداً كبيراً من الكتب التي أحضروها إلى السريانية، وأنشؤوا مستشفى كبيراً في هذه المدينة عرف باسم: " بيمارستان جنديسابور"، الذي لعب دوراً كبيراً في بدايات ظهور الطب العربي على الرغم من أن النساطرة لم يكن لهم ميل إلى نشر علمهم بين مخالفيهم في العنصر والعقيدة.

هوامش الفصل الأول من الباب الأول

١- Major Ralph: A History of Medicine vol. 1p.3.

٢- Loc. cit.

٣- Ibid vol 1p.9.

٤- هيرودوت.

٥- رحاب خضر عكاوي: الموجز في تاريخ الطب عند العرب، ص٤٠-٤١.

٦- Major Ralph : A History of Medicine vol. 1p.27.

٧- Ibid. vol. 1p.31.

٨- من يريد أن يطلع على المزيد عن الطب المصري القديم يمكنه الرجوع إلى: حسن كمال: الطب المصري القديم، Major Ralph: A History of Medicine، عكاوي: الموجز في تاريخ الطب عند العرب.

٩- Major Ralph: A History of Medicine vol 1p.46.

١٠- أبواليزيد علي المتيت: جرائم الإهمال، ص ٢٦٩.

١١- عكاوي: الموجز في تاريخ الطب عند العرب، ص ١٩.

١٢- Major: Op. Cit, vol 1p.65.

١٣- Ibid. vol 1p.79.

١٤- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج٣ ص ٥١-٥٢.

١٥-المصدر السابق نفسه، ج٣ ص ٥٠.

١٦- يقصد شاراكا الذي مر معنا ذكره.

١٧- يقصد سوسروتا.

١٨- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ج٣ ص٥٠.

١٩- لمن أراد المزيد عن كتب الطب الهندية يمكنه الرجوع إلى ابن النديم: الفهرست، ص ٣٦٤.

٢٠- أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي: المقالة الثلاثون من التصريف لمن عجز عن التأليف، ص ٣٥١.

٢١- Major: Op. Cit., vol 1p.83.

٢٢- ابن النديم: الفهرست، ص ٢٩-٣٠.

٢٣- المصدر السابق نفسه، ص ٤٢٥-٤٢٦.

٢٤- ديسوقريدس:صاحب كتاب الحشائش، انظر الهامش ٦١.

٢٥- عكاوي: الموجز في تاريخ الطب عند العرب، ص ٤٥.
و Major: Op. Cit., vol 1p.227.

٢٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط٣، بيروت: دار الثقافة، ١٤١٠هـ/١٩٨١م.

٢٧- يرجع إلى بيان المصادر والمراجع في نهاية الكتاب.

٢٨- Major Ralph: A History of Medicine vol 1p.102.

٢٩- Ibid. vol 1p.103.

٣٠- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج١ ص ٢٩.

٣١- المكان نفسه.

٣٢- المكان نفسه.

٣٣- المصدر السابق نفسه، ج١ ص ٢٩-٣٠.

٣٤- المصدر السابق نفسه ج١ ص ٣٧، وابن النديم: الفهرست، ص ٣٤٧.

٣٥- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج١ ص ٣٧.

٣٦- المصدر السابق نفسه، ج١ ص ٣٩.

٣٧- المصدر السابق نفسه، ج١ ص ٤٢.

٣٨- كثير من مؤرخي الطب يعتقدون أن هذا القسم اقتبسه الإغريق من المصريين القدماء، انظر: Major: A History of Med. Vol 1p.102.

٣٩- ابن النفيس: شرح فصول أبقراط، ص ١٧.

٤٠- ابن النديم: الفهرست، ص ٣٤٩.

٤١- المصدر السابق نفسه، ص ٣٤٨.

٤٢- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج١ ص٥٠.

٤٣- المصدر السابق نفسه، ج١ ص ٥١.

٤٤- ابن النديم: الفهرست، ص ٣٤٩-٣٥٠.

٤٥- ابن النفيس: شرح فصول أبقراط، ص ١٨.

٤٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج١ ص ٤٧.

٤٧- انظر ابن النديم: الفهرست، ص ٣٥٠، وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج١ ص ١٠٩، ستجد أن المصدر الأساسي لهذه المعلومات التاريخية هو يحيى النحوي الإسكندراني، علماً أن ابن أبي أصيبعة نفسه يشكك في دقة تواريخ هذا المصدر.

٤٨- ابن أبي أصيبعة:عيون الأنباء، ج١ ص ١٠٨.

٤٩- المصدر السابق نفسه، ج١ ص ١٢٥.

٥٠- ابن النديم: الفهرست، ص ٣٥١.

٥١- المصدر السابق نفسه، ص ٣٥١.

٥٢- Major: A History of Med. vol 1p.194.

٥٣- Ibid. vol 1p.192.

٥٤- Ibid vol 1p.119.

٥٥- ابن النفيس: شرح فصول أبقراط، ص ١٩.

٥٦- ابن النديم: الفهرست، ص ٣٤٩-٣٥٠.

٥٧- المصدر السابق نفسه، ص ٣٥١.

٥٨- ابن النفيس: شرح فصول أبقراط، ص ١٦٠.

٥٩- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج١ ص ١٤٨.

٦٠- ابن النديم: الفهرست، ص ٣٥٥.

٦١- ابن أبي أصيبعة:المصدر السابق، ج١ ص ٥٧.

٦٢- ابن النديم: المصدر السابق، ص ٣٥٤.

٦٣- Major: A History of Med. vol 1p.142.

٦٤- Ibid p.146.

٦٥- تاريخ أوروبا العام، ج١ ص٢٤٠.

٦٦- المكان نفسه.

٦٧- بيمارستان: لفظ فارسي من مقطعين: "بيمار" بمعنى مرضى، و"ستان" بمعنى موضع. أي تكون الترجمة بمعنى: "موضع المرضى" أو "دار المرضى"، أي مستشفى بلغة العصر الحديث. وقد أطلق العرب على مستشفياتهم لفظ "بيمارستان"، وهو اللفظ الذي اعتمدناه في هذا الكتاب عند الكلام عن المستشفيات في ذلك العصر.

الفصل الثاني
فجر الطب العربي

الطب العربي قبل الإسلام:

الجذور:

تكلمنا في الفصل الأول عن الطب منذ فجر التاريخ مروراً بعدة حضارات سادت في مراحل تاريخية مختلفة. وإذا أمعنا النظر فيما كتبناه فسنتوصل إلى عدة نتائج قد تفيدنا في تفهم الطب في بلاد العرب قبل الإسلام والتعرف على جذوره:

١- الأمراض التي تصيب الإنسان قديمة قدم الإنسان نفسه على الأرض، ومنذ أن ظهر وهو يسعى لتدبير بدنه بحفظ صحته ودفع المرض عنه بالمداواة بشتى الوسائل المتاحة له، وبالمعرفة التراكمية التي توصل إليها. فالطب والتطبيب حاجة إنسانية، وصنعة الطب ضرورة بشرية في جميع العصور والبلدان، في الحضر والبادية، وليس فقط في "المدن والأمصار" كما قال ابن خلدون، مما جعلها من أقدم المهن وأعرق الصناعات، ومما جعل علم الطب علماً أصيلاً لدى كل الأمم وليس علماً دخيلاً كما ادعى البعض بأن الطب من العلوم الدخيلة على العرب انتقلت إليهم من البلاد المتاخمة. وفي الوقت نفسه يجب أن نقول إن الطب من المعارف الإنسانية العامة التي ساهمت جميع الشعوب والأمم في

تطورها، وهناك نقاط التقاء بين هذه الأمم تتبادل فيه المعرفة المتوارثة والتجارب الخاصة، وقد تسهم أمة من الأمم في فترة تاريخية معينة بنصيب الأسد في هذا التقدم؛ ولكن هذا لا يعطينا الحق بمقولة إن علم الطب علم دخيل على أمة من الأمم، إلا إذا كان لنا غرض آخر غير الحقيقة.

٢- نجد أن صنعة الطب وتطورها أحد المؤشرات الحضارية المهمة للدلالة على مدى تطور أمة من الأمم، فكلما رقيت أمة رقي الطب لديها، وذلك لرقي الأدوات الحضارية التي تستخدمها في تطور علم من العلوم بتراكم المعرفة الذاتية والاكتشافات الجديدة، بالإضافة إلى المعرفة التي حصلت عليها من الأمم السابقة والمعاصرة لها لتحسّن وسائل الاتصال نتيجة للتطور الحضاري.

وهناك سبب آخر لتطور الطب بتطور الحضارة ناتج من أن التطور الحضاري يؤدي إلى ظهور أمراض جديدة كانت غير معروفة للمجتمع عندما كان بدائياً، وهنا تدعو الحاجة والضرورة إلى تطوير الطب ليستطيع التعامل مع هذا التطور في الأمراض في المجتمع المتطور. وقد يكون هذا ما قصده ابن خلدون عندما كتب:

"هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمصار لما عرف من فائدتها،.....، ووقوع هذه الأمراض في أهل الحضر والأمصار أكثر، لخصب عيشهم، وكثرة مأكلهم، وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية، وعدم توقيتهم لتناولها"[1]. ويقول أيضاً في مقدمته: "وهي لهذا العهد (عصر ابن خلدون) في المدن الإسلامية كأنها نقصت لوقوف العمران وتناقصه، وهي من الصنائع التي لا

تستدعيها إلا الحضارة والترف "[٢]. وإن كنا لا نتفق معه تمام الاتفاق بأن صنعة الطب ضرورية فقط في المجتمعات المتحضرة، حيث إنها كما قلنا سابقاً ضرورة في جميع المجتمعات، حتى أن الإنسان الأول وإنسان العصر الحجري قد مارسها، أما إذا كان يقصد أن صنعة الطب تتطور بتطور المجتمع الحضاري، فهذا هو الواقع.

٣- من قراءتنا للفصل الأول نجد أيضاً أن الطب من حيث ارتباطه بحياة الإنسان وصحته، قد ارتبط أيضاً بمخاوفه، وبالتالي بغيبياته وعقائده الوثنية قبل نزول الأديان السماوية. ومن هنا كان هناك دائماً طب يعتمد على الخرافات والأساطير والشعوذات، وطب موضوعي واقعي تجمعت معارفه بالتجربة والمحاولة والخطأ والتفكير المجرد وهذا ينطبق أيضاً على الطب في الجزيرة العربية قبل الإسلام، الذي بظهوره أوقفت الممارسات الوثنية والشعوذات الخرافية، كما سنبين ذلك.

ولتكن هذه النقاط الثلاث في ذاكرتنا أثناء تعرفنا على الطب في جزيرة العرب قبيل الإسلام.

سكان الجزيرة والموروث الحضاري:

سكنت الجزيرة العربية شعوب وأقوام شتى في مراحل التاريخ المختلفة، يرجع جميعها إلى أصل واحد في كونهم ساميين، ويجمعهم أيضاً لفظ واحد كونهم عرباً، فهناك عرب بائدة كعاد وثمود والعماليق وجرهم وغيرهم، بعضهم

جاء من بلاد الرافدين بموروثه الحضاري كالعماليق، وبعضهم جاء من اليمن بموروثه الحضاري كجرهم، وبعضهم كانت لهم مَدَنِيّة حضارية تشهد الآثار الباقية على ما كانوا عليه من تقدم حضاري كثمود[٣].

والعرب العاربة وهي القبائل التي سكنت اليمن قبل انهيار السد، وكانت صاحبة حضارات عريقة ومدنية عظيمة، وإذا ربطنا هذا بما قرره ابن خلدون من أن صنعة الطب من ضروريات الحضارة والعمران، فإننا نستطيع أن نجزم قياساً بأن الطب كان متقدماً في ذلك الحين في جنوب بلاد العرب، وهذا ما يؤكده الدكتور خالد الحديدي عندما يخبرنا عن وجود مدرسة طبية ببلاد اليمن كانت لها فلسفتها الطبية المستقلة[٤]. وعند انهيار السد انطلقت كثير من القبائل اليمنية القحطانية مهاجرة شمالاً، استوطنت أماكن شتى من الجزيرة العربية مختلطة ببني إسماعيل وبمن بقي من العرب البائدة، ومن المؤكد أن كثيراً من المعرفة الطبية المتوارثة انتقلت معهم إلى الأوطان الجديدة.

والعرب المتعربة [٥] ذرية إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام) من زوجته رعلة بنت مضاض بن عمر الجرهمية اليمانية،[٦] ووالد إسماعيل هو نبي الله وخليله إبراهيم (عليه السلام) الآتي من بلاد الرافدين المار على مصر والشام وكلها بلاد حضارات ومدنيات عريقة، مزوداً بتعاليم ربه وبالدين الحنيف، ومن المؤكد أنه جلب معه كثيراً من المعرفة الطبية الدنيوية التي كانت سائدة في تلك النواحي، ووصل إلى مكة وبصحبته إسماعيل (عليه السلام) وزوجه أمنا هاجر بنت حضارة مصر القديمة وموروثها الطبي، ومن هذه الذرية انتشرت القبائل

العدنانية في طول الجزيرة وعرضها، واختلطت بالفئتين الأخرتين المكونة للعرب، ولنا أن نتصور الناتج الحضاري لهذا الاتصال والامتزاج، وصحيح أيضاً أن كثيراً من هذا الموروث الحضاري قد فُقد ونقص بسبب حياة البداوة التي عاشتها هذه القبائل التي قلّتْ حاجة أفرادها للطب بسبب هذا النمط من الحياة، وذلك إذا أخذنا برأي ابن خلدون عن طب الحضر وطب البادية.

وقد مر معنا رأيه في كون الطب ضرورة في المدن والأمصار، والآن لنتعرف على رأيه في طب البادية حيث يقول:" وأما أهل البدو فمأكولهم قليل في الغالب والجوع غلب عليهم لقلة الحبوب، حتى صار لهم عادة.....، أما أهويتهم فقليلة العفن، لقلة الرطوبات والعفونات،... ثم إن الرياضة موجودة فيهم من كثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات أو مهنة أنفسهم في حاجاتهم... فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد عن الأمراض، فتقلّ حاجتهم إلى الطب"[٧].

ثم يواصل ابن خلدون وصفه للطب السائد في البادية حيث يقول:" وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ويتداولونه موروثاً عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض، إلا أنه ليس على قانون طبيعي، ولا عن موافقة المزاج"[٨].

والآن لنأتي للتساؤل.. هل الطب الذي كان منتشراً في بلاد العرب قبيل الإسلام هو هذا الذي يصفه ابن خلدون؟ لنؤجل الإجابة قليلاً، ولنتعرف على الجزء الأسطوري من الطب العربي في الجاهلية، والذي أدى إلى اختلاط كثير من الخرافات والشعوذات به كبقية شعوب العالم القديم.

الطب العربي ومدى ارتباطه بالخرافة في العصر الجاهلي

كان العرب الأوائل من عدنان وقحطان على شريعة خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام). وقد تلقوها من ولده إسماعيل (عليه السلام) وهي الحنيفية[٩] فكانوا بعيدين عن الخرافات والشعوذات، ولكن لمّا بعدوا من زمن النبوة كثر فيهم الجهل وقلت معرفتهم بما جاءت به شريعتهم، ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم[١٠] فدخلت الخرافات معتقداتهم. مثلاً كانوا يعتقدون أن النفس طائر ينبسط في الجسم فإذا مات الإنسان أو قُتل لم يزل يطيف به مستوحشا يصدع على قبره ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرا ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم وهو أبدا مستوحش ويوجد في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور وأنها لم تزل عند ولد الميت ومخلفه لتعلم ما يكون بعده فتخبره[١١].

وكانوا يعتقدون في أن في البطن حية فإذا جاع الإنسان عضت على شرسوفه وكبده.

وإذا أراد رجل منهم دخول قرية وخاف وباءها أو حيّتها يقف على بابها قبل أن يدخلها فينهق نهيق الحمار ثم يعلّق عليه كعب أرنب كتعويذة تقيه.

كما إذا خافوا على الرجل الجنون وتعرض الأرواح الخبيثة له نجسوه بتعليق الأقذار عليه كخرقة الحيض وعظام الموتى.

وكان الغلام منهم إذا سقطت له سن أخذها بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها وقال: يا شمس أبدليني بسن أحسن منها.

وكانوا يعتقدون أن أكل لحوم السباع يزيد من الشجاعة والقوة.

وكانوا إذا طالت العلة بواحد منهم وظنوا أن به مسا من الجن لأنه قتل حية أو يربوعا أو قنفذا عملوا جمالا من طين وجعلوا عليها جوالق وملؤوها حنطة وشعيرا وتمرا وجعلوا تلك الجمال في باب جُحر إلى جهة المغرب وقت الغروب وباتوا ليلتهم تلك فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال الطين، فإذا رأوا أنها بحالها، قالوا: لم تقبل الدية فيزيدو فيها، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا: قد قبلت الدية، واستدلوا على شفاء المريض وفرحوا وضربوا بالدف[١٢].

ومثل ما مر معنا في الفصل السابق عند الكلام عن الطب لدى الأمم السابقة وما ارتبط به من أساطير وخرافات منذ عصور ما قبل التاريخ وخاصة حمل الأحجار وتعليقها الكريمة منها والرخيصة لتحميهم من العين ولتقيهم الأمراض أو لأغراض أخرى، فان مذهب العرب في الجاهلية لم يختلف عنهم وكانوا مشهورين بذلك، فمن خرزاتهم:

"السلوانة" يُسقى العاشق منها فيسلو.

"الهنّمة" خرزة لاجتذاب قلوب الرجال.

"العقرة" تشدها المرأة على خاصرتها فتمنع الحمل.

"القطفة" خرزة لاستجلاب العطف.

"القرزحلة" تلبسها المرأة لاستمالة زوجها إليها دون ضرتها.

"الكحلة" خرزة سوداء تجعل على الصبيان لرفع العين عنهم.

"الفطسة" يمرض بها العدو ويقتل.

و"الوجيهة" خرزة تعلق للوقاية من الأمراض.

الطب العربي ومدى ارتباطه بالموضوعية والواقعية في العصر الجاهلي

كما قلنا سابقاً بأن الطب لدى الأمم القديمة يتكون من جزأين: أحدهما أسطوري خرافي يعبر عن مخاوف الإنسان وتمسكه بالحياة وبحثه عن الخلود، والآخر موضوعي واقعي معارفي يعبر عن حصيلة المعرفة الإنسانية لدى أمة من الأمم، المتجمعة لها من التجربة، أو المحاولة والخطأ، أو من الاتصال بالأمم الأخرى، وبالتالي يعبر عن الموقع الحضاري لهذه الأمة. وهذا ينطبق أيضا على العرب في جزيرتهم قبل الإسلام.

وحيث إننا قد تحدثنا عن الجانب الأسطوري الخرافي من طبهم، لننظر الآن إلى طبهم الآخر، ولنبدأ بالإجابة المؤجلة عن السؤال السابق هل كان ابن خلدون موضوعياً عندما قال -لنعيد ما قاله مرة أخرى لأهمية الموضوع-: "وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، ويتداولونه موروثا عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض، إلا أنه ليس على قانون طبيعي، ولا عن موافقة المزاج"؟

الإجابة من شقين:

١- إذا كانت مقولة ابن خلدون على وجه العموم، أي أنه يصف طب البادية في جميع الأزمان والأمصار من حيث أن حاجة الإنسان الذي يحيا في الصحراء إلى الطب أقل من الإنسان الذي يحيا في المجتمعات الحضرية للأسباب التي

ذكرها وأوردناها في الصفحات السابقة؛ فإننا نصدقه القول، وإن كنا لا نذهب إلى ما ذهب إليه في إلغاء دور الطب في المجتمعات البدوية، فقد أثبتنا خلال الفصل الأول من هذا الكتاب أن الطب ضرورة إنسانية.

٢- الشق الثاني من الإجابة: إذا كان ابن خلدون يقصد بمقولته هذه على وجه التخصيص الطب في جزيرة العرب قبل الإسلام، فإننا لا نتفق معه على ما ذهب إليه، وإن كنا لا نعتقد أنه قصد ذلك، غير أن كثيراً من الكتّاب الأقدمين والمحدثين أيضاً طبّقوا مقولته هذه ليصفوا ويدمغوا بها الطب العربي قبل الإسلام، وهو عنها بعيد.

فكما مر معنا في الصفحات السابقة فإن العرب سكان الجزيرة هم ناتج حضاري لعدة شعوب وقبائل، جذورها ضاربة في حضارات التاريخ، وإن تفشى الجهل فيهم في مراحل لاحقة وخاصة في العصر الجاهلي قبل الإسلام؛ ولكن لا نعتقد أن مخزونهم الحضاري في الطب المورث لهم قد تبدد جميعه.

اللغة العربية كمؤشر حضاري للمعرفة الطبية في العصر الجاهلي:

لم ترتبط أمة بلغتها كارتباط العرب بلغتهم، وإذا تركت الأمم السابقة ذوات الحضارات آثاراً مادية وحفريات يُستدل منها على مدى ما كانوا عليه من حضارة، ويُرجع إليها عند البحث عن دلالة حضارية معينة فإن العرب تركوا آثارهم وحضارتهم في لغتهم، ومن يريد البحث عن دلالة حضارية معينة عليه الرجوع إلى لغتهم وشعرهم. فإن أردت التعرف على طبهم في تلك الفترة فإنك

لن تجد كتاباً طبياً واحداً أو أثراً يدل على ذلك، ولكن إن رجعت إلى لغتهم وشعرهم ستجد عشرات الألفاظ، بل مئاتها التي يُستدل منها عن معرفتهم بالأمراض ووصفهم للأعراض وللجسم البشري. وليس غريباً أن نجد كاتباً لغوياً هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله الخطيب الإسكافي يضع كتاباً في وصف جسم الإنسان (علم التشريح) يسميه (كتاب خلق الإنسان)[١٣]، مستعملاً ألفاظاً عربيةً استخدمها عرب الجاهلية، ويستشهد على ما ادعاه بالشعر الجاهلي، فيصف الشعر، والرأس، والعينين، والأنف، ومجاري الدمع، واللسان وأجزاءه، والحلق وما فيه من اللغاديد واللغانين، والحنجرة، والغلصمة، والبلعوم، والحلقوم، ويستمر في وصف العنق، والمنكب، والكتف، واليد وما تركبت من العظام والأعصاب والعضلات والعروق... إلخ.

وكذلك يصف الجوف وما به من القلب، والكبد، والطحال، والرئة، والكليتين، والمصارين، والأمعاء، والأعفاج، والمحشي، والحوايا، والكرش... إلخ.

والفرج وما تركب منه وأسماؤه، واختلاف المرأة عن الرجل، والرحم وموضعه وتركيبته، والدبر وما فيه[١٤].

ولنتطرق الآن لبعض ما ورد في لغتهم الجميلة العريقة من ألفاظ تتعلق بوصفهم لبعض الأمراض وأعراضها، مما يدل على سعة علمهم في الطب:

الحمى: وتكنى بأم ملدم. والحمى أنواع:

الغب: إذا أخذته يوماً وتركته يوماً.

الربع: أن تأخذه يوماً وتدعه يومين.

مغبطة ومردمة: أي دائمة عليه لا تكاد تقلع. وتسمى المطبقة أيضاً.

(ألا يذكرك هذا بحمى الملاريا؟).

ويحم الصالب: للتي معها صداع.

والنافض والراجف: التي معها رعدة ورجفة وقد نفضته الحمى.

حمى الروح وحمى الدق (السبات): أن يغمى عليه من الحمى.

الوعك: الحمى.

شاك: به شكاة.

موصّم: يجد تكسيراً في عظامه.

وصب: وجع.

منهوك: براه المرض.

مثبت: لا يبرح الفراش.

نصب: أسهره المرض.

المستهاض: الذي ينكس بعدما يبرأ.

اليرقان: وهو داء يصفر الإنسان.

الصداع: وجع الرأس.

الشقيقة: وجع في شقه (صداع نصفي).

السعال: وجع في الصدر.

الزكام: هو اندفاع فضلات، تحلبا من الزائدتين، فهو أخص من النزلة لكونها تقال على ما اندفع مطلقاً.

الزحير: من أمراض المعي، وهو حركة من المستقيم تدعو إلى دفع البراز اضطراريا.

الحصر: احتباس البطن.

الأسر: احتباس البول.

الحصى: الحجر في مجرى البول.

الحكة: تغير سطح الجلد في اللمس مع لدغ مستلذ إذا حك.

الحصف: بثور شوكية.

وغيرها من الأمراض والأعراض الجلدية التي وصفوها كالحصبة، والجدري، والشرى، والحماق، والقوباء، والثؤلول، والجرب، والجرب الأبيض، وأسموه (العر)، والجذام؛ أسموه أيضاً (داء الأسد) ووصفوه أيضاً (داء الفيل)، وداء الثعلب (الثعلبة).

وعرّفوا:

الدوار: وهو أن يتخيل الشخص أنه يدور بجملة أجزائه، وأن المكان يدور عليه.

الوباء : تغير يعرض للهواء يخرج به عن اعتدال الصحة إلى إيجاب المرض.

الهيضة: وتسمى الفضجة، من أدواء البطن، وهو ما يستوجب القيء والإسهال[١٥].

وغير ذلك من عشرات الألفاظ التي تصف الأمراض التي كانوا يعرفونها، والأعراض التي كانوا يرونها، مثل النقرس، والفالج، والحدبة، والطرش، والباسور، والناسور، والبهق، والبرص، والمغس؛ أو المغص، والذبحة، والاستسقاء، والاختلاج، والبخر، والفواق، وغيرها.

هذا من جهة علمهم بالأمراض وتكوين الجسم البشري، وأما من جهة حفظ الصحة والوقاية من الأمراض فكانت لهم أقوال مأثورة نورد بعضها:

أورد ابن أبي أصيبعة في كتابه القيّم عيون الأنباء في طبقات الأطباء: "ومن كلام الحارث بن كلدة: البطنة بيت الداء والحمية رأس الدواء، وعوّدوا كل بدن ما اعتاد. وقيل من كلام عبدالملك بن أبجر. وقد نسب قوم هذا الكلام إلى رسول الله ﷺ، وأوّلهُ المعدة بيت الداء، وهو أبلغ من لفظ البطنة"[١٦].

"ولما احتضر الحارث بن كلدة اجتمع الناس فقالوا: مُرنا بأمر ننتهي إليه بعدك. فقال: لا تتزوجوا من النساء إلا شابة، ولا تأكلوا الفاكهة إلا في أوان

نضجها، ولا يعالجن أحد منكم ما احتمل بدنه الداء، وعليكم بالنورة في كل شهر، فإنها مذيبة للبلغم مهلكة للمرة منبتة للحم وإذا تغدى أحدكم فلينم على أثر غدائه، وإذا تعشى فليخط أربعين خطوة"[١٧].

طرق العلاج في العصر الجاهلي:

أما علاجهم فكان يقوم في المقام الأول على استعمال العقاقير المفردة، ومعظمها من أصل نباتي، فاستعملوا الهليون والحمص وعنب الثعلب والبصل والثوم والكمون وحبة البركة والتمر والحناء والشيح والقيصوم والبابونج والأقحوان، وكثير من النباتات العشبية الصحراوية التي لا تزال تستعمل إلى عصرنا الحالي، كما استعملوا أبوال الإبل وألبانها في العلاج، وكذلك العسل والإثمد والكحل.

بل عرفوا فائدة مضادات الجراثيم واستعملوها بدون أن يَعلموا كُنهها. تقول زيجريد هونكة في كتابها: (شمس العرب تسطع على الغرب): "وفي مداواة الجروح تقليد عربي قديم هو تعبير أصيل عن عبقرية العرب، ذلك أن عرب الجاهلية قد أبدعوا في مداواة الجروح المعدية ووجدوا لها وسيلة لم تكتشف إلا في القرن العشرين، وكان لها صدى عظيم، ونعني بها مضادات الجراثيم، فمن سروج حميرهم ودوابهم حصلوا على المواد المضادة للجراثيم، وعلى دواء الهليون، وصنعوا منها مراهم وعالجوا بها جراحاتهم الملتهبة. كما نفخوا غبار الخبز العفن في الحلق لدى التهابه، كما هو معهود لدى البدو حتى أيامنا هذه"[١٨].

وإلى جانب العقاقير استعملوا الحجامة[١٩] والفصد[٢٠]، وفي آخر المطاف كانوا يستعملون الكَيّ فكانوا يقولون: آخر الدواء الكي.

وكانوا يقومون ببعض العمليات الجراحية الصغيرة كالختان، وبط الأورام الصغيرة، ووقف النزف الدموي باستعمال الرفائد، وتثبيت الكسور بالجبائر.

أطباء من العصر الجاهلي:

وقد اشتهر عدد من أطباء الجاهلية وصلت أسماؤهم إلينا، نورد أسماء بعضهم كمثال، مع ترجمة موجزة لأشهرهم سمعة:

الحارث بن كلدة الثقفي وابنه النضر بن الحارث بن كلدة، وزينب طبيبة بني أود، وابن أبي رمثة التميمي، وابن حذيم، وزهير بن خباب بن هبل الحميري، وغيرهم.

الحارث (الحرث) بن كلدة الثقفي[٢١]: أشهر أطباء العصر الجاهلي، من المعمرين المخضرمين عاش في الجاهلية ومات في عصر معاوية بن أبي سفيان، ثقفي من الطائف، ارتحل في البلدان، ووصل فارس واستزاد من علم الطب من مدرستها الطبية في جنديسابور، وتمرن هناك، وله معالجات كثيرة ومعرفة بما كانت العرب تعتاده وتحتاج إليه من المداواة، وله كلام مستحسن فيما يتعلق بالطب وغيره. وعندما مرض سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بمكة عاده رسول الله ﷺ، فقال: ادعوا له الحارث بن كلدة فإنه رجل يتطبب [٢٢].

وهناك رواية مشهورة أوردتها كتب الأدب والتراث عن محاورة تمت بين

الحارث بن كلدة وكسرى أنو شروان ملك فارس، عندما دخل عليه الحارث أثناء وجوده في تلك البلاد، لن نوردها كاملة هنا، ومن أراد أن يطلع عليها يمكنه الرجوع إلى تلك الكتب[٢٣]، ولكننا سننقل منها فقرة وهي التي تهمنا للدلالة على أن الطب الإغريقي الذي كان منتشراً في الدول المجاورة للجزيرة -كما مر معنا في الفصل السابق- كان معروفاً بنظريته في الأخلاط الأربعة والطبائع الأربعة لدى بعض أطباء الجزيرة وأن الطب العربي في ذلك الزمن لم يكن فقط تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، ويتداولونه متوارثاً من مشايخ الحي وعجائزه، كما قال ابن خلدون.

ولننقل الآن جزءاً من المحاورة نقلاً عن عيون الأنباء في طبقات الأطباء:

" قال (يقصد سؤال كسرى): فعلى كم جُبِل وطُبِع هذا البدن؟

قال (يقصد إجابة الحارث بن كلدة): على أربعة طبائع: المرة السوداء وهي باردة يابسة، والمرة الصفراء وهي حارة يابسة، والدم وهو حار رطب، والبلغم وهو بارد رطب. قال (كسرى): فلم لم يكن من طبع واحد؟ قال (الحارث): لو خلق من طبع واحد لم يأكل ولم يشرب ولم يمرض ولم يهلك. قال (كسرى): فمن ثلاث؟ قال (الحارث): لم يصلح موافقان ومخالف، فالأربع هو الاعتدال والقيام. قال (كسرى): فأجمل لي الحار والبارد في أحرف جامعة. قال: كل حلو حار، وكل حامض بارد، وكل حريف حار وكل مر معتدل، وفي المر حار وبارد".

ومن أقواله: "أربعة أشياء تهدم البدن، الغشيان[٢٤] على البطنة، ودخول

الحمام على امتلاء، وأكل القديد، ومجامعة العجوز ".

فهذا العلم والمعرفة الطبية التي كانت لدى هذا الطبيب العربي القادم من داخل الجزيرة المعزول حضارياً (نسبياً). وهو الذي وصلت أخباره إلينا، ألا يتبادر إلى الذهن السؤال: كم من الأطباء لم تصلنا أخبارهم كانوا على نفس الدرجة من العلم؟ وإذا كان هذا الطبيب من الداخل فكم من الأطباء الذين عاشوا لدى المناذرة في الحيرة قريباً من فارس أو لدى الغساسنة قريباً من الروم أو في اليمن لم تصلنا أخبارهم؟

الطب العربي في صدر الإسلام (فجر الطب العربي)

(تمتد هذه الفترة من ظهور الإسلام إلى نهايات الدولة الأموية)

المسلمون الأوائل والعلم:

في بداية القرن السابع الميلادي كان العلم والمعرفة الإنسانية وخاصة الثقافة الهيلينية (الإغريقية) في بطون الكتب في أقبية القصور والأديرة وليست في أدمغة الرجال، كما بينا ذلك في نهاية الفصل الأول من هذا الباب، فروما وأوروبا الغربية سيطرت عليها القبائل الجرمانية ببربريتها وتوحشها وجهلها. وجزء صغير من شرق أوروبا وآسيا الصغرى ومصر وسوريا تحت حكم لواؤه الأحقاد الدينية والتعصب المذهبي ألا وهو حكم بيزنطة، وبلاد الرافدين وغرب آسيا تحت حكم غطرسة الحديد والنار لأكاسرة الفرس إلا من بصيص ضوء خافت لجنديسابور وما حولها يحمل أشعة باهتة لبقايا ثقافة هيلينية مسؤول عنها نساطرة يضنون بعلمهم (وهو قليل) على غيرهم ولا يضيفون جديداً له، والصين منكفئة على نفسها مكتفية بحضارتها، والهند متقوقعة في فلسفتها.

وفي جزء من خريطة هذا العالم القديم تقع جزيرة العرب أو بلادهم، يعيش فيها شعب تفرق إلى قبائل متنافرة متناحرة يحيا معظمه في شظف حياة البادية في الصحراء، ومن عاش منهم في المدن كانت حياته شبه بدوية، على الرغم من طيب محتد هذا الشعب ونسبه الذي ترجع أصوله إلى حضارات عدة كما بينا في بداية هذا الفصل، وقد عاش في أمية شبه كاملة؛ على الرغم من

اللغة القوية الجميلة التي يمتلك ناصيتها وعلى الرغم من عشق هذا الشعب للفظ والشعر، هل هذا تناقض؟ نعم تناقض لا يشبهه إلا تناقض مناخ صحاريهم بين الليل والنهار. وهذا لم يمنع من ظهور أشخاص كالحارث بن كلدة لديه علم بالطب لا يقل عن علم النساطرة في طب ذلك الزمن.

وفي وسط هذا الظلام الكوني وفي نقطة بعيدة عن مراكز الحضارة ينبثق نور في مكة، نور الوحي والرسالة ليشمل أولاً مكة ثم المدينة، وما هي إلا غمضة عين في زمن الكون لينتشر هذا النور ويشمل جل العالم المعروف في ذلك الوقت.

نزلت رسالة الإسلام على سيد البشرية جمعاء رسول الله ﷺ لتبليغها للعالم أجمع بدين التوحيد والحق والعدل والمساواة والتسامح وتكريم العلم والعلماء، فلا عجب أن ينتشر هذا الدين بسرعة البرق، فمن اللحظات التاريخية النادرة، بل التي لا مثيل لها أن تنتشر عقيدة في مثل هذا الزمن، فمئة عام من تاريخ الكون -أي قرن واحد فقط- يفصل بين تهديد حياة المصطفى ﷺ وهجرته وصاحبه إلى المدينة ليلحقوا بالفئة القليلة التي آمنت وبين دولة الإسلام الكبرى التي امتدت لتشمل نصف العالم القديم[٢٥]، ممتدة من أسبانيا إلى حدود الصين. ولتتوحد القبائل العربية المتناحرة بفضل ربها لتكون نواة لأمة عظيمة وتتشكل دولة دينها وتعاليمها الإسلام. وبفضل سماحة الإسلام تكون ثقافة جميع قاطني هذه الدولة من مسلمين وغير مسلمين إسلامية، ولتتحول اللغة العربية من لغة قبائل الجزيرة فقط إلى لغة هذه الدولة ؛ يتكلمها جميع أفرادها من عرب وعجم وروم وبربر وذلك بتشريف الله لها بنزول القرآن بها، ليس هذا

فقط، بل تتحول إلى لغة عالمية لغة الثقافة والعلوم والآداب والفنون، يقول سارتون:

"اللغة العربية كانت اللغة العلمية المتطورة للبشرية، خلال هذه المدة إذا أراد أي شخص أن يكون مطلعاً على أحدث المستجدات كان عليه أن يدرس العربية"[٢٦].

إن هذه الدولة الجديدة التي دينها الإسلام، ورسالتها نشره، وهذه الأمة الفتية نواتها عرب الجزيرة، وكثرتها ممن استعرب وممن أسلم لم تكن أمة تعصب وعنصرية، ولم تطغ في الأرض. لقد ظهرت عبر التاريخ دول وأمم كثيرة، وأمم اكتسحت العالم بالقوة العسكرية المطلقة، ونشرت الدمار حيثما حلت بجهل التوحش أو ببربرية الجهل، وأقرب مثال جنكيزخان وأمته من التتار، وتدميرهم لحواضر عصرهم وإفناؤهم لكنوز المعرفة الإنسانية، فكان هذا منطق القوة المرتبطة بالجهل. ولكن دولة الإسلام الأولى تشكلت بأفراد آمنوا برسالة إلهية، أرادوا نشرها، وآمنوا بدين يدعو إلى التوحيد والحق والمساواة والإنصاف، ويحض ويحرص على العلم.

آمنوا بقرآن أول ما نزل منه هذه الآيات الكريمات المباركات:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[٢٧].

يقول ابن كثير في تفسيره: "وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم. وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من

كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البشرية آدم (عليه السلام) على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان. ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. وفي الأثر: "قيدوا العلم بالكتابة"، وفيه أيضاً: "من عمل بما علم ورثه الله ما لم يكن يعلم"[٢٨].

لقد خرج مؤسسو هذه الدولة الإسلامية الفتية من جزيرتهم وهم مؤمنون بما نزل على رسول الله ﷺ كامل الإيمان، متبعون لسنته في شتى أمور الحياة، لم يؤمنوا بجزء ويكفروا بجزء، ولم يتبعوا جزءاً من سنته فقط ويتركوا الباقي. فعندما يحضهم الإسلام على احترام العقل والتفكير كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾[٢٩]. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣٠]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣١] فإنهم آمنوا بهذه الآيات وبغيرها من الآيات التي تحض على التفكير واستعمال العقل، كما آمنوا بالآيات التي تحض على العلم وتكريم العلماء وتفضيلهم على غيرهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٣٢]، وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٣٣].

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[٣٤].

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٣٥]. وغيرها من الآيات التي تكرم العلم والعلماء وهؤلاء آمنوا بسنة رسول الله وسيد البشرية ﷺ فاتبعوها.

فهم صدعوا لأمر الرسول ﷺ عندما يقول: "**طلب العلم فريضة على كل مسلم**"[٣٦]، وتقربوا إلى الله عز وجل بطلب العلم عملاً بقول رسوله ﷺ: "**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**"[٣٧]، ويتبعون سنته عندما يقول ﷺ: "**الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو في أهل الشرك**"[٣٨]. بل يعلنون الحرب على الجهل والأمية الثقافية امتثالاً لأمر الرسول الأعظم ﷺ إذ يقول: "**ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم بالعقوبة**"[٣٩].

بهذا الإيمان وبهذا العقل والعقلانية وبهذا الموقف من العلم بنى المسلمون الأوائل دولتهم، وأرسوا دعائم نهضتها، فالبذرة الأولى للحضارة العربية الإسلامية التي بلغت أوجها وآتت أكلها لاحقاً في قمة الدولة العباسية زرعت في هذا العصر المبكر للإسلام، وليست -كما ردد كثير من الكتاب العرب- اجتهاداً خاطئاً أو ترديداً لمقولة مستشرقين مغرضين: بأن هذه البذرة بذرة الحضارة العربية الإسلامية زُرعت عند بدء الترجمة من اليونانية والسريانية وغيرهما من اللغات إلى العربية، فجميع ما تم لاحقاً من اطلاع وترجمة ونقل وتجريب وإبداع، ومن تأسيس للمنهج العلمي التجريبي المميز لهذه الحضارة

وضعت لبنته الأساسية في صدر الإسلام، وكان ناتجاً طبيعياً ومحصلة منطقية لفكر المسلمين الأوائل؛ القائم على تعاليم القرآن والسنة في استعمال العقل والتدبر والتباري في طلب العلم. وتطور هذا الفكر ليصبح منهجاً علمياً مميزاً للثقافة الإسلامية التي هيمنت ثقافياً وعلمياً على دولة الإسلام الفتية، وتبناها جميع أفراد هذه الدولة كما قلنا سابقاً من مسلمين وغير مسلمين، وعرب وغير عرب؛ ولهذا نجد أن كثيراً ممن ساهموا في الحضارة العربية الإسلامية من غير العرب، وبعضهم من غير المسلمين. فقد وفّر مناخ الإسلام المتسامح والفكر العلمي المجدد جواً للإبداع والحضارة لجميع قاطني هذه الدولة، وفقط لهذا الجو العلمي وليس لسبب آخر كما ادعى شعوبيُّو الماضي والحاضر، ومن سار على دربهم من مستغربي العرب والمسلمين أبدع هؤلاء، فالذين أبدعوا في منظومة الحضارة العربية الإسلامية من يهود وصابئة وغيرهم، والذين أبدعوا من غير العرب لم يستطيعوا أن يبدعوا في مجتمعاتهم قبيل ظهور الإسلام على الرغم من أن كنوز المعرفة الإنسانية إلى ذلك الوقت كانت محفوظة لديهم.

وعندما تقرأ كتاباً لمبدع من عصر الحضارة الإسلامية فإنك لا تستطيع أن تكتشف أن كاتبه غير عربي؛ فلغته عربية صحيحة، أو غير مسلم؛ فثقافة الكتاب وقيمه إسلامية وإن كان كاتبه غير مسلم. فكتاب مثل "أدب الطبيب" ستبدأ بقراءته وتنهيه بدون أن تعلم أن كاتبه إسحاق بن علي الرهاوي يهودي، لولا أن الناشر ومحقق الكتاب ذكرا ذلك. وهناك عشرات من الكتب على هذا المنوال.

وهذا الرأي من أن بذرة الحضارة العربية الإسلامية زرعت بنزول الوحي، وحضّ القرآن والسنة النبوية الشريفة على استخدام العقل والتفكير وتكريم العلم والعلماء، وإيمان المسلمين الأوائل بهذا ضمن إيمانهم الكامل بالدين الإسلامي لا يتعارض مع المقولة السابقة بأن المعرفة الإنسانية تراكمية تضيف الأمم الحضارية اللاحقة المستجدات والمتغيرات المعرفية إلى الموروث المعرفي للأمم السابقة، وهذا التفاعل الحضاري يستغرق وقتاً قد يطول أو يقصر حسب الفكر المجدد وحيوية الدم الجديد المحرك للتفاعل الحضاري، وهؤلاء المسلمون الأوائل ملكوا الفكر المجدد، وجرى في عروقهم دم حيوي جديد يدفعهم إلى نشر رسالة الإسلام وقيادة الحركة الحضارية للإنسانية تنفيذاً لتعاليم دينهم في تحكيم العقل والبحث العلمي، وتطويرهم لمناهج بحثية جديدة على العالم القديم منبثقة من دينهم.

وشغلوا في البدء في ترسيخ دعائم دولتهم الفتية ليس بحد السيف، بل باستعمال المنهج العقلاني العلمي ضمن حدود شريعتهم وقيمها. فطوّروا -وفي بعض الأحيان اقتبسوا ثم عدّلوا- الأطر الإدارية والثقافية لدولتهم الحديثة لتتعامل مع المستجدات من تنامي أطراف الدولة، ودخول أقوام عدة في الدولة الجديدة، فهم عندما وجدوا أن الصحابة من حفظة القرآن بدؤوا يقلون بسبب الموت؛ جمعوا القرآن الكريم، ثم وضعت التفاسير ضمن قواعد ومنهجية معينة وظهر بذلك علم التفسير، كما جمعوا أحاديث الرسول ﷺ، ووضعوا منهجاً علمياً للتحقق من صحتها، وعلى ذلك قسموها وظهر علم الحديث، ووضعوا المنهج العلمي لعلم الفقه والتوحيد وبقية العلوم الشرعية.

وبسبب دخول أجناس عدة بلغاتهم المختلفة في دين الله أفواجاً، وتبني هؤلاء المسلمين الجدد لغة القرآن لغة جديدة لهم، دخل اللحن على اللغة العربية، وحفاظاً عليها وضعوا المنهج العلمي للبحث اللغوي، وظهرت علوم اللسان العربي من لغة ونحو وبيان وأدب. يقول ابن خلدون:

"أركانه أربعة(يقصد علوم اللسان العربي): وهي اللغة والنحو والبيان والأدب. ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونَقَلَتُها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغتهم، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة "(٤٠).

ويقول ابن خلدون أيضاً: "وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة (يقصد اللغة العربية) رأساً، ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة، شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه. مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول به منصوب، والمبتدأ مرفوع ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً وأمثال ذلك، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم، فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو"(٤١).

أوردنا هذه النصوص من مقدمة ابن خلدون لنضرب مثلا عن كيفية نشأة هذه العلوم الأصيلة ومنهجها.

هكذا بدأت قصة العرب والمسلمين الأوائل مع الحضارة والعلم، وبدأت تظهر العلوم المختلفة بفضل رغبة هؤلاء في البحث وطلب العلم تنفيذاً لتعاليم دينهم والحاجة الماسة نتيجة للتطور الحضاري المطرد للمجتمع والدولة الإسلامية.

لقد بدؤوا كما قلنا بالعلوم التي تتعلق بشريعتهم، فظهرت علوم التفسير والحديث والفقه وما يتبعه من فرائض وتجويد وقراءات القرآن وما يتعلق بذلك من العلوم. وبالعلوم المتعلقة بلغتهم من نحو ولغة وبيان وآداب. وبتطور مجتمعهم زادت حاجتهم إلى العلوم التطبيقية مثل الطب -وسنتكلم عن ذلك بالتفصيل- وعلم الفلك لأهمية ذلك للمسلم لمعرفة أهلّة الأشهر ومواقيت الصلاة لعلاقة ذلك بعباداته، ولتطوير الصناعات في المجتمع الجديد من فلاحة وبناء ونجارة وورق وغيرها، وصلوا إلى العلوم العقلية والطبيعية من علوم حسابية وعلوم هندسية وطبيعية.

ولتطوير أي علم من هذه العلوم لابد من الوصول إلى تجارب الشعوب الأخرى، والمعرفة الإنسانية المتراكمة، وعندما خرج العرب المسلمون الأوائل من جزيرتهم لم يجدوا هذه المعرفة الإنسانية في عقول رجال المناطق التي فتحت بأمر الله، كما وضحنا ذلك سابقا: بأن العالم كان في حالة ركود علمي عندما ظهر الإسلام، ولكنهم من هؤلاء علموا بوجود كنوز المعرفة الإنسانية في بطون الكتب في خزائن القصور والأديرة، وبذلك بدأت أكبر حركة ترجمة ونقل في التاريخ، وتجمعت المعرفة البشرية لهم. وبحبهم للعلم والعقل اتباعاً لتعاليم دينهم

بدؤوا يدرسون ويفحصون ويدققون في هذه المعارف التي وصلت إليهم مطورين لهم منهجاً علمياً تجريبياً، وعندما استوعبوا ذلك خالفوا آراء معلميهم الأوائل إذ وجدوا أن هناك خلافاً، ونسخوا المعرفة الباطلة بأخرى صحيحة ناسخة، وأضافوا إلى كل هذا معارفهم الجديدة ونتائج تجاربهم.

فطوروا بذلك جميع العلوم البشرية المعروفة إلى ذلك الوقت، وأسسوا علوماً جديدة قائمة بذاتها مثل علم الجبر، ووضعوا الأسس لعلوم لم تُعرف إلا في عصرنا الحديث مثل علم الاجتماع، وبذلك تحولت الحضارة العربية الإسلامية من وارثة للمعرفة الإنسانية إلى حاضنة لها، إلى حاملة لواءها بعد كمال نضجها حسب ظروف ومقتضيات ذلك العصر إلى أن استلمتها وورثتها الحضارة الغربية الحديثة.

المسلمون الأوائل والطب:

أين الطب من كل هذا في صدر الإسلام؟ كون الطب حاجة وضرورة إنسانية وجد منذ أن ظهر البشر على الأرض، كما أثبتنا ذلك في الفصل الأول، وكونه صنعة إلى جانب كونه علماً، فقد تفرد هذا العلم عند العرب عن بقية العلوم العقلية بعدة مميزات كانت له دافعاً للتطور بقدر أسرع منها، نذكر أهمها:

- عندما نرجع إلى ما كتب في بداية هذا الفصل في فقرة الطب العربي قبل الإسلام نجد أن العرب في جزيرتهم كان لديهم طبٌّ يفي بحاجتهم ويتناسب مع المستوى الحضاري الذي كانوا عليه، بل كان هناك أطباء على دراية وعلم

ببقايا المعرفة الطبية الإغريقية المعروفة في ذلك العصر، لا يقلّون علماً وثقافة طبية عن أطباء جنديسابور حيث درس هؤلاء الأطباء العرب والتي كانت تعتبر المركز الرئيس لبقايا الطب الإغريقي المعروف. أبرزهم الحارث بن كلدة الثقفي وابنه النضر.

بل إن بعض الباحثين يضعون البدايات الحقيقية لانتقال المعرفة من الحضارات السابقة إلى العالم الإسلامي عند هذا الطبيب المخضرم الذي عاصر الجاهلية وصدر الإسلام، يقول الدكتور ماهر عبد القادر محمد: "إن البدايات الحقيقية لحركة انتقال علوم الحضارات الأخرى إلى العالم الإسلامي ترجع إلى شخصيتين: الأولى: الحارث بن كلدة. والثانية: خالد بن يزيد بن معاوية ".

وعندما تطلق العرب مثلاً سائداً هو: "أطب من حذيم". ويقول الرواة: إن حذيماً هذا أطب العرب، وبالتالي أطب من الحارث بن كلدة، وعلمنا عن الحارث ما علمنا؛ فلنا أن نتصور مستوى الطب في ذلك العصر.

ما نستخلصه من هذا: أن الطب تميز عن غيره من العلوم العقلية بوجود هذه القاعدة الحضارية التي يمكن البناء عليها.

- نقطة أخرى أعطت الطب ميزة عن بقية العلوم العقلية. فقد أشرنا سابقاً عن انشغال المسلمين في بداية دولتهم في توطين دعائمها، ووجهوا جل اهتمامهم العلمي في البدء إلى العلوم الشرعية والعلوم اللغوية، ثم بعد ذلك إلى العلوم العقلية، يستثنى من هذا علم الطب لحاجتهم له، يقول صاعد الأندلسي: "إن

العرب في صدر الإسلام لم تعن بشيء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها، حاشا علم الطب، فإنها كانت موجودة عند أفراد غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طُرّاً لها"[٤٣].

وبالتالي نجد أن المسلمين الأوائل وجهوا شوقهم العلمي الذي ظهر مبكراً تنفيذاً لتعاليم دينهم في التدبر والتفكير واستخدام العقل إلى الطب في نفس وقت ظهور اهتماماتهم العلمية بالعلوم الشرعية واللغوية؛ مما أعطى الطب قصب السبق عن بقية العلوم العقلية.

الإسلام وحفظ الصحة وعلم الطب:

- أما أهم نقطة أعطت الطب ميزة على سائر العلوم العقلية الأخرى، وقصب السبق في تناوله علمياً وتطويره إلى ما وصل إليه، حيث تقدم على سائر فروع العلم في أوج الحضارة الإسلامية؛ ألا وهي ما جاء به القرآن والسنة الشريفة، أي تعاليم الدين الإسلامي. فكما أشرنا سابقاً أن كثيراً من آيات القرآن والأحاديث النبوية الشريفة تحض على التفكير واستخدام العقل وطلب العلم وتكرم العلم والعلماء وذلك على وجه العموم.

قال الله عز وجل في محكم التنزيل: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[٤٤]. أي إن غاية الخلق هي العبادة، ولكي يقوم الإنسان بشعائره الدينية كاملة غير منقوصة؛ لابد أن يكون سليم البدن والعقل، حيث تسقط عبادات وشعائر (أو لا تقام على الوجه الأكمل) عند عدم سلامة العقل وعدم

قدرة الإنسان القيام بها لعلة في بدنه تمنعه من ذلك إلى حين زوالها، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[٤٥].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[٤٦] وقوله عز وجل ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[٤٧].

ومن هنا أَولَى الإسلام الصحة والمحافظة عليها ودفْع الأمراض وعلاجها والطب والتطبب عناية خاصة، ونجد كثيراً من تعاليم الإسلام من القرآن والسنة وسيرة الرسول ﷺ لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بصحة الإنسان.

ومن حيث أن الصحة هي الوضع الطبيعي والمرض هو الطارئ، فالإنسان الصحيح العقل والجسم هو فقط الذي يستطيع أن يقوم بشعائره الدينية على الوجه الأكمل، ويحيا حياته الطبيعية كما أمره الله "**المؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف**"[٤٨]، ليقوم بجميع مسؤولياته أمام ربه وأمام أسرته ومن يعولهم وأمام مجتمعه: "**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**"[٤٩]؛ لذا أَولَى الإسلام من قرآن وسنة الصحة والمحافظة عليها اهتماماً كبيراً.

ولهذا قال من قال من السلف الصالح في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[٥٠]، قال: الصحة[٥١]. وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ أنه

قال: "**أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة عن النعيم؛ أن يقال له: ألم نصح لك جسمك ونروّك من الماء البارد؟**"(٥٢). فالحفاظ على الصحة مسؤولية.

وقال رسول الله ﷺ: "**من أصبح معافى في جسده، آمنا في سِرْبه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزتْ له الدنيا**"(٥٣). وقوله ﷺ: "**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**"(٥٤). وقوله ﷺ: "**سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتي أحد بعد اليقين خيراً من العافية**"(٥٥) وقوله ﷺ: "**ما سئل الله شيئا أحب إليه من العافية**"(٥٦).

وكثير من الشعائر الدينية لها علاقة بالصحة، وان كانت أصلاً للعبادة، فالعلاقة بين الوضوء والنظافة، وبين هذه وحفظ الصحة ظاهرة غير منكورة، وعندما يؤمر المسلم بالوضوء قبل كل صلاة فريضة ونافلة علينا أن نتصور الحماية التي يحصل عليها من الأمراض التي تنقل بالقذارة.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا**﴾(٥٧).

وهذه الآية تأمر المسلم أيضاً بالطهارة بعد الجنابة بالاغتسال.

ثم فريضة الصلاة، وهي في الأصل عبادة، وركن من أركان الإسلام وعماد الدين، وفي نفس الوقت رياضة للروح والبدن من خشوع ووقوف وركوع وسجود وما له من تأثير إيجابي على صحة الإنسان.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾(٥٨).

وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾(٥٩).

والآية التي تلي هذه في سورة الحج: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾(٦٠).

تنص على الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو الحج الفريضة التي رُبطت بالاستطاعة سواء كانت مادية أو غيرها أو لعجز صحي يمنعه من ذلك. والحجُّ بالنسبة لصحيح الجسم إلى جانب كونه فريضةَ عبادةٍ وترويضاً للنفس ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾(٦١) مفيد في الحفاظ على الصحة؛ لما فيه رياضة للبدن بما يستوجبه من سفر وطواف وسعي وانتقال بين المشاعر وفعل المناسك.

والصيام والذي هو ركن من أركان الإسلام قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾(٦٢)، فمع كونه فريضةَ تعبدٍ فعلاقته بالصحة والحفاظ عليها مشهور منذ القدم، وقد نشرت دراسات عدة وكتب كثيرة في هذا المجال.

وإذا تتبعنا آيات القرآن نجد أن الإسلام قد حرم كل فعل يضر بصحة الإنسان، وكما على المسلم أن يجتنب هذه المحرمات طاعة لله وتنفيذاً لأوامره فإنه في بعده عنها حفاظ لصحته.

كلنا يعرف علاقة الزنى بالأمراض التناسلية، وتأثير ذلك على صحة الإنسان قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾[٦٣].

﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٦٤].

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[٦٥].

ويقول ﷺ: "**وما ظهرت الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشي فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم**" [٦٦].

ويحرّم الإسلامُ إتيان الرجلِ الرجلَ ويعتبره من أكبر الجرائم، فهو إلى جانب كونه من الفواحش المفسدة للخلق وللفطرة وللدين فهو مفسد أيضاً للصحة؛ لما لهذا الفعل من تأثير على الصحة النفسية والإصابة بأمراضها المختلفة، بالإضافة إلى الإصابة بالأمراض السارية، وعلاقة هذه الفاحشة بظهور وانتشار مرض نقص المناعة المكتسب معروف، كما أنه معروف في مجتمع المرتكبين لهذه الفاحشة أن الفاعل يغير شريكه بسرعة مما يؤدي إلى انتشار الأمراض في المجتمع.

قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾[٦٧].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾[٦٨].

وحرم الإسلام وطء الحائض والنفساء حتى تطهر. قال عز وجل: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾(٦٩).

والعلاقة الإيجابية بين هذا التحريم وصحة الإنسان سواء للرجل أو للمرأة بينه لأي مطلع في عصرنا هذا.

وأي طالب طب أو أي فرد لديه وعي صحي يعلم ضرر الخمر على الصحة: من أضرار مؤقتة في بدء تعاطيها كذهاب العقل مؤقتاً وعدم التحكم في أفعاله، إلى الالتهابات الحادة في الجهاز الهضمي، إلى الأمراض المزمنة مثل قرحات المريء والمعدة المزمنة، إلى النزيف، إلى عدم القدرة على التركيز، لينتهي إلى الأضرار الدائمة من إدمان كامل وتحطيم لخلايا المخ ليصل إلى ذهاب العقل الدائم، وإلى تليف الكبد الكحولي المؤدي إلى نزيف دوالي المريء، وغيرها من الأمراض المرتبطة بإدمان الخمر.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾(٧٠).

أما في هديه ﷺ فنجد أحاديث كثيرة تدل على مدى اهتمام الإسلام بالصحة العامة للفرد والوقاية من الأمراض. بعضها تتناولها مباشرة، وقد أوردنا جزءاً منها في الصفحات السابقة، وبعضها تتناول أمور الحياة التي إن تمت على الوجه الصحيح أثرت إيجاباً على الصحة، والعكس سلباً.

وسنورد هنا بعضاً من هذه الأحاديث النبوية والسيرة الشريفة[٧١] في هذه الأمور، ففي الطعام والشراب: "**وكان يأكل الخبز مأدوما ما وجد له إداما...**"[٧٢] وإذا حللنا هذا بمعارف الطب الحديث: عدم الاعتماد على مصدر واحد من عناصر الغذاء.

وقال ﷺ: "**ترك العشاء مهرمة**"[٧٣].

وقال أيضاً: "**ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فان كان لابد فاعلا، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**"[٧٤].

وقال النبي ﷺ: "**غطوا الإناء، وأوكؤوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا وقع فيه من ذلك الداء**"[٧٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: "**نهى رسول الله ﷺ أن يتنفس في الإناء، أو ينفخ فيه**"[٧٦].

ومعاني هذه الأحاديث وما توصل إليه علم الطب الحديث يغني عن أي شرح.

وفي النظافة: قد مر معنا فرض الإسلام للوضوء والغسل من الجنابة، وإلى جانب هذا نجد كثيراً من الأحاديث تحث وتحض على النظافة الشخصية ونظافة البيئة؛ مما سيؤثر إيجابياً على صحة الفرد والمجتمع.

قال ﷺ: "**خمس من الفطرة: الختان والاستحداد ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، وقص الشارب**" (٧٧).

وقال النبي الكريم ﷺ: "**إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يُدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاث مرات، فإن أحدكم لا يدري أين باتت وأين كانت تطوف يده**"(٧٨).

وقال ﷺ: "**السواك مطهرة للفم مرضاة للرب**"(٧٩).

ويقول ﷺ: "**اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل**"(٨٠). كما نهى الرسول ﷺ: "**أن يبال في الماء الراكد**"(٨١).

وقال رسول الله ﷺ: "**إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنائكم وساحاتكم، ولا تشبهوا باليهود يجمعون الأكب(٨٢) في دورهم**"(٨٣).

وقس على هذا في شتى أمور الحياة الأخرى، فإننا نجد من الأحاديث ومن سيرته العطرة ﷺ هدى للفرد المسلم في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ونومه وجِماعه وغُسلِه وطهارته وغيرها.

وهدي الرسول ﷺ خص المرأة أيضاً في الأمور التي تهمها من حيض وجماع وحمل ونفاس ورضاع، ليس هذا فقط بل هديه ﷺ في تنشئة النشء المسلم على الطرق الصحيحة، فلا يخفى علينا جميعاً التأثير الإيجابي للتربية المبنية على الرحمة والرفق على نفسية الطفل، عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال: "قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: من لا يرحم لا يرحم"(٨٤).

إنه هدي لو تمسك به الفرد لاكتسب سلوكيات إيجابية تنفعه في دينه ودنياه وتفيده في المحافظة على صحته ليحيا صحيحاً معافىً بعيداً عن الأمراض بإذن ربه.

هذا من جهة هدي الرسول ﷺ في الأمور الحياتية اليومية وعلاقته بالحفاظ على صحة الفرد والمجتمع. وهناك أحاديث في الوقاية من الأمراض والاحتراز منها، قال ﷺ: "إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها "(٨٥). أليس هذا هو الحَجْر الصحي في علم الطب الحديث؟

وقوله ﷺ: "لا يوردن ممرض على مصح" (٨٦).

مما سبق تتضح العلاقة الوثيقة بين التعاليم الإسلامية والحفاظ على صحة الفرد والمجتمع، وقد تم تناولها بشيء من التفصيل لتبيان أمور ثلاثة:

أولها: للرد على بعض المستشرقين وبعض الكتّاب المسلمين الذين ينكرون هذه العلاقة، وينكرون أصالة المعلومات الصحية في القرآن والسنة من أمثال إدوارد براون من جامعة كمبرج الذي يزعم بأن معلومات الرسول ﷺ عن الصحة والطب مقتبسة من الحارث بن كلدة، ويزعم أيضاً أن القرآن لم يتعرض إلى الموضوعات الطبية إلا فيما يتعلق بالجروح ومعلومات غامضة عن علم

المضغة[٨٧]. والبعض الآخر الذي يزعم أن القرآن لم يتعرض إلا نادراً للتعاليم الصحية، وهذه ما هي إلا وصايا وحكم ذات علاقة بالصحة العامة[٨٨].

وهذا الاعتقاد يدل -إلى جانب كونهم مغرضين لأمر في نفوسهم- إلى فهمهم الخاطئ أو إلى قصور فهمهم عن الغاية من الخلق، وحرص الإسلام على بناء الإنسان المؤمن القوي الصحيح الجسم ليقوم بمسؤولياته على الوجه الأكمل، فلم يتمعنوا ولم يتعمقوا في دراسة التعاليم الإسلامية في القرآن والسنة، وعلاقتها بصحة الفرد والمجتمع. ويدل في الوقت نفسه إلى قصور فهمهم عن شمولية معنى الصحة العامة، والوقاية من الأمراض، وهذا القصور في الفهم أدى إلى النقص الواضح في اهتمام الطب الحديث وأطبائه بالطب الوقائي، وتركيزه على الطب العلاجي، ويمكن تفهم ذلك من حيث ارتباط الطب والموقف من الصحة العامة بالقيم والمعتقدات والآراء السائدة في مجتمع العصر الذي يمارس فيه هذا الطب.

ثانيها: بالجمع بين ما سبق بيانه من الاهتمام الكبير للإسلام بأمور الصحة العامة وصحة الفرد وما سيأتي بيانه من اهتمام الإسلام بالطب والتطبب وعلاج الأمراض وربط الأسباب بالمسببات فهمنا ذلك التوجه العلمي المبكر للمسلمين الأوائل للطب.

ثالثها: قد يكون فيما ذكر إجابة للتعجب الذي يستولي على لب كل مُطّلع متعمق لتراث الطب العربي، لهذا الاهتمام الكبير الذي أولاه أطباء الحضارة الإسلامية المتقدمون منهم والمتأخرون لما نسميه اليوم " بالطب الوقائي "أو "صحة المجتمع"، ولما سماه القدماء "بتدبير الصحة". فلا تجد طبيباً من أطباء

هذه الحضارة ممن وضعوا تآليفاً في الطب إلا وله إن لم يكن عدة كتب فكتاب واحد على الأقل في تدبير الصحة، ولا تجد كتاباً طبياً لأي منهم إلا شغلت مواضيع تدبير الصحة مساحة كبيرة منه. وكان المنهج العلمي في الكتابة لدى الكثيرين منهم يقوم على وصف العضو تشريحياً، ثم بيان فائدته ووظيفته (فسيوليوجيا)، ثم طرق الحفاظ على صحة العضو، ثم عن الأمراض التي تصيبه وعلاجها[٨٩]. بل اعتبر معرفة الطبيب المبتدئ بطرق تدبير الصحة من المتطلبات المهمة لاجتياز اختبار ممارسة مهنة الطب (كما سيأتي في الفصول القادمة من هذا الكتاب). وهذا يؤدي إلى الجزم بأن حيّزاً كبيراً من العمل اليومي لطبيب ذلك الزمن كان موجهاً لتدبير الصحة وحفظها ليس فقط بالنصائح (التوعية الصحية) لتغيير السلوكيات الصحية الخاطئة، بل بالتدخل الطبي المباشر من حجامة وفصد واستخراج.

ومن هنا جاء تعريفهم بغاية عمل الطبيب: حفظ الصحة الموجودة ورد الصحة المفقودة.

عرّف ابن سينا الطب: "بأنه علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصلح ويزول عن الصحة ليحفظ الصحة حاصلة ويستردها زائلة"[٩٠].

وبنفس المعنى يعرّف ابن خلدون الطب: "وأما الطب فهو حفظ الصحة للإنسان، ودفع المرض عنه ويتفرع من علم الطبيعة، وموضوعه بدن الإنسان"[٩١].

والإسلام بنظرته الشاملة مثلما اتخذ موقفاً إيجابياً من حفظ الصحة حاصلة أي "الطب الوقائي"؛ اتخذ أيضاً موقفاً إيجابياً من استرداد الصحة الزائلة، أو ما نطلق عليه (الطب العلاجي)، لبناء الإنسان القوي المعافى في عقله ونفسه وبدنه، لتتحقق الغاية من خلقه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٩٢]، وليتحمل الأمانة التي رضيها لنفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[٩٣].

موقف الإسلام من الطب العلاجي يَتَبَدَّى في عدة أمور:

١- ذكر القرآن المرض والشفاء في عدة مواضع:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٩٤]. وهذا يدل على أن الله عز وجل هو الذي يُمرض ويُشفي. وهو الذي وضع الأسباب المفضية إلى مسبباتها من مرض أو شفاء أو غيرها. وهذا الاستدلال مهم في تحديد مسؤولية الطبيب، فالمريض لا يستطيع أن يطالب الطبيب بضمان نتيجة علاجه وهو الشفاء، فالشفاء من عند الله، كما لا يستطيع الطبيب أن يضمن ذلك.

يقول أبو بكر الرازي: "وليتكل الطبيب في علاجه على الله تعالى، ويتوقع البرء منه، ولا يحسب قوته وعمله، ويعتمد في كل أموره عليه، فإن عمل بضد ذلك ونظر إلى نفسه وقوته في الصناعة وحذقه حرمه الله من البرء"[٩٥]. والآية المذكورة تعطي الإنسان الأمل بالشفاء بعد المرض وكله من عند الله.

قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾[٩٦].

وقال عز وجل: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٩٧].

وقال تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾[٩٨].

هناك مسائل كثيرة تتناولها هذه الآيات الكريمة يمكن الرجوع إليها في أحد كتب التفسير لابن كثير أو غيره، فالقرطبي مثلاً أورد تسع مسائل في الآية الأخيرة، ليست مجال بحثنا هنا،وإنما الذي نريد أن نشير إليه: أن القرآن يخبرنا بأنه هناك مرض وهناك شفاء وهناك علاج بعدة طرق، وربط الأسباب بالمسببات، وجواز المعالجة بشرب الدواء.

٢- هناك أحاديث كثيرة للرسول ﷺ تحث على التداوي، وربط الأسباب بالمسببات والحض على إيجاد العلاج المناسب.

قال ﷺ: "**لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء، برأ بإذن الله عز وجل**"[٩٩].

عن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا يا رسول الله، أنتداوى؟ فقال: "**نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد**" قالوا: ما هو؟ **قال: الهرم**"[١٠٠].

وعن أبي خزامة قال: قلت: يا رسول الله! أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: "**هي من قدر الله**"[١٠١].

إن كل قارئ متمعن لهذه الأحاديث الشريفة يجد عدة مسائل يهمنا منها هنا:

- الحث على التداوي والعلاج، والبحث عن الدواء الذي يزيل الداء، وربط الأسباب بالمسببات.

- وإعطاء الأمل للمريض بإمكانية الشفاء، وتقوية روحه المعنوية مما يساعده في مقاومة المرض.

- ويعطي دفعاً للطبيب في دراسة حالة المريض جيداً للوصول إلى التشخيص الصحيح، وبالتالي إيجاد الدواء المناسب. كما يكون دافعاً قوياً للطبيب في البحث العلمي عن مواد جديدة تصلح أن تستخدم كأدوية لأمراض معروفة لم يكن لها دواء، أو لأمراض جديدة لم تكن معروفة. و تحث الطبيب في البحث في كل مرض مجهول السبب لمعرفة كنهه، وبالتالي إيجاد الدواء المناسب له.

إن الباحث عن أسباب تطور الطب السريع في الحضارة الإسلامية، والوصول إلى هذه المكانة الرفيعة التي وصل إليها سيجد ضالته في هذه الأحاديث الشريفة.

- استكمالاً لما جاء في الفقرة (١) عن تحديد مسؤولية الطبيب، ومدى ضمانه نتيجة العلاج، نجد أن هذه الأحاديث تؤكد أيضاً أن التزام الطبيب نحو المريض ليس التزاماً بتحقيق نتيجة، أي ضمان الشفاء من حيث أن الشفاء من عند الله وإنما هو التزام ببذل عناية، أي بذل الجهد الصادق اليقظ في تشخيص الداء، وإيجاد الدواء المناسب (استخدام العلاج المناسب).

٣- حث الرسول ﷺ بالتداوي لدى الشخص المؤهل لذلك وهو الطبيب؛ إنه لما مرض أبي بن كعب رضي الله عنه بعث إليه رسول الله ﷺ طبيباً فقطع منه عِرقاً ثم كواه عليه"[١٠٢].

ويروى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه مرض بمكة مرضاً فعاده رسول الله ﷺ فقال: "**ادعوا له الحارث بن كلدة فإنه رجل يتطبب**"(١٠٣) رغم أن الحارث بن كلدة في ذلك الوقت كان من المشركين.

قال ﷺ: "**الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو في أهل الشرك**"(١٠٤).

- وكما حث الرسول ﷺ على التداوي لدى الشخص المؤهل أي الطبيب؛ حث أيضاً على الاستعانة بأحذق مَنْ في صناعة الطب الممكن الوصول إليه.

عن زيد بن أسلم: أن رجلاً في زمان رسول اللهﷺ أصابه جرح، فاحتقن الجرح الدم، وإن الرجل دعا رجلين من بني أنمار، فنظرا إليه فزعما أن رسول الله ﷺ قال لهما: "**أيكما أطب**"؟ فقال: أوفي الطب خير يا رسول الله؟ فقال: "**أنزل الدواء الذي أنزل الداء**"(١٠٥).

- ليس هذا فقط، بل يوجب الإسلام الضمان على الطبيب الجاهل إن نتج عن جهله ضرر على المريض.

قال ﷺ: "**من تطبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك، فهو ضامن**"(١٠٦).

والآن وبعد ذكر هذه الأحاديث الشريفة نستطيع أن نستكمل ما جاء في الفقرة (١) والفقرة (٢) من حيث أن التزام الطبيب نحو المريض ليس التزاماً بتحقيق نتيجة أي ضمان الشفاء، وإنما هو التزام ببذل عناية، أي بذل الجهد الصادق اليقظ في تشخيص الداء، وإيجاد الدواء المناسب (ونضيف هنا: تتفق مع الأصول العلمية المتعارف عليها). وبعد مئات السنين بعد الألف الأولى بعد هجرة

المصطفى ﷺ تأتي الدول الغربية في العصر الحديث لتضع هذا القانون الذي ينظم العلاقة بين الطبيب والمريض ضمن قوانينها الوضعية.

"الرابطة التعاقدية بين المريض والطبيب هي رابطة تعاقدية ببذل عناية، أي أن التزام الطبيب ليس التزاماً بتحقيق نتيجة، وإنما هو التزام ببذل عناية، إلا أن العناية المطلوبة تقضي أن يبذل الطبيب لمريضه جهوداً صادقة يقظة تتفق في غير الظروف الاستثنائية مع الأصول المستقرة في علم الطب، فيُسأل الطبيب عن كل تقصير في مسلكه الطبي لا يقع من طبيب يقظ في مستواه المهني وجد في نفس الظروف الخارجية التي أحاطت بالطبيب المسؤول" (١٠٧).

٤- وقد حارب الإسلام السحر والكهانة والعرّافة والشعوذة والرقية الجاهلية والتمائم وتعليق الخرز والأحجار والودع، وكل الخرافات والأساطير الوثنية والتي كانت تشكل جزءاً من الطب الذي كان سائداً في الجاهلية، وقد مر ذكرها في بداية هذا الفصل عند الحديث عن الطب في العصر الجاهلي.

عن عمران بن حصين: "أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر فقال: **ما هذه؟** قال: من الواهنة. قال: **انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً**"(١٠٨).

قال رسول الله ﷺ: "**من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له**"(١٠٩).

قال ﷺ: "**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**"(١١٠).

عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: "**هي من عمل الشيطان**"(١١١).

وقال ﷺ: "**العيافة والطيرة والطرق من الجبت**"(١١٢).

وقال النبي الكريم ﷺ: "**من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**" (١١٣).

قال تعالى: ﴿ **وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ** ﴾(١١٤).

٥- وكما للرسول ﷺ هدي في حفظ الصحة، له هدي في التداوي بالأدوية المفردة، وبطرق العلاج الأخرى التي كانت سائدة في ذلك الوقت. فكان هذا أكبر تشريف للطب والأطباء، ورفع مهنة الطب إلى المكانة الرفيعة التي وصل إليها في الحضارة العربية الإسلامية، مما جعل البعض يرفعون علم الطب إلى مكانة علم الأديان، بل قدمه عليها، ففي قول مأثور للإمام الشافعي رضي الله عنه: "العلم علمان؛ علم الأبدان وعلم الأديان، وعلم الأبدان مقدم على علم الأديان"(١١٥)، وظنه البعض حديثاً.

وأحاديث سيد المرسلين ﷺ في مجال المرض والطب كثيرة، فنجد البخاري في صحيحه قد أفرد لها كتاب المرض، وكتاب الطب. وعلى مر العصور الإسلامية ظهرت كتب عديدة لعلماء أجلاء جمعوا فيها أحاديث الرسول ﷺ وهديه في مجال حفظ الصحة والعلاج الروحي وعلاج الأبدان بالدواء والحجامة والفصد والبط والبزل والكي وغيرها من العلاجات، وأطلق عليها مسمى: "كتب الطب النبوي" أشهرها ما كان للإمام الذهبي، وابن قيم

الجوزية، والإمام التيفاشي، وموفق الدين البغدادي، وعلي بن عبد الكريم الحموي وغيرهم[١١٦].

وقد مر معنا في الصفحات السابقة جزء من هذه الأحاديث الشريفة، ونورد هنا بعضاً منها في شتى مجالات التداوي المعروفة في ذلك الوقت.

ففي هديه ﷺ في علاج الحمى:

قال ﷺ: "**إنما الحمى أو شدة الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء**" [١١٧].

وقد جاء الطب الحديث ليوصي باستعمال الماء البارد والتبريد على وجه العموم لتخفيض درجة حرارة المحموم.

يقول ابن قيم الجوزية: "قد أشكل هذا الحديث على كثير من جهلة الأطباء، ورأوه منافياً لدواء الحمى وعلاجها...." [١١٨]. حيث كانت قواعد علاج ذلك الزمن تحذر من تبريد المحموم، فجاء الطب الحديث ليبين خطأ رأي أطباء ذلك الزمن وليؤكد ما جاء في الحديث الشريف، مع علمنا أن قول المصطفى ﷺ لا يحتاج إلى تأكيد من أطباء أي زمان.

وفي هديه في العلاج بالعسل والحجامة والكي:

قال رسول الله ﷺ: "**الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنا أنهى أمتي عن الكي**" [١١٩].

وقال ﷺ: "**وما أحب أن أكتوي**" [١٢٠].

"ولما رمى سعد بن معاذ في أكحله حسمه النبي ﷺ، ثم ورمت، فحسمه الثانية" [١٢١]. والحسم هو الكي. وقال الخطابي: "إنما كوى سعداً ليرقأ الدم في جرحه، وخاف عليه أن ينزف فيهلك، وأما النهي عن الكي، فهو أن يكتوي طلباً للشفاء، وكانوا يعتقدون أنه متى لم يكتو هلك، فنهاهم عنه لأجل هذه النية"[١٢٢].

وفي علاج الأورام والخراجات:

يذكر عن علي أنه قال:" دخلت مع رسول الله ﷺ على رجل يعوده بظهره ورم، فقال يا رسول الله! بهذه مدّة. قال: **"بطوا عنه"**. قال علي: فما برحت حتى بطت[١٢٣] والنبي ﷺ شاهد"[١٢٤].

وفي علاج القبض:

من حديث أسماء بنت عميس قالت: "قال رسول الله ﷺ: **بماذا كنت تستمشين؟** قالت: بالشبرم. قال: **حار جاف**. قالت: ثم استمشيت بالسنا، فقال: **لو كان شيء يشفى من الموت لكان السنا**" [١٢٥].

وفي الحجامة والفصد:

قال ﷺ: "**خير ما تداويتم به الحجامة**[١٢٦] **والفصد**[١٢٧]"[١٢٨].

وقس على هذا، فهناك عشرات الأحاديث في مجال التداوي للأبدان، ولم تهمل الأحاديث الشريفة مجال العلاج الروحاني لما فيه من تقوية للمرضى في مواجهة المرض مما يؤثر إيجابياً على العلاج:

قال ﷺ: "**إذا دخلتم على المريض، فنفسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يرد شيئا وهو يطيب نفس المريض**" (١٢٩).

يقول ابن قيم الجوزية: "وفي هذا الحديث نوع شريف جداً من أشرف أنواع العلاج، وهو الإرشاد إلى ما يطيب نفس العليل من الكلام الذي تقوى به الطبيعة، وتنتعش به القوة، وينبعث به الحار الغريزي، فيتساعد على دفع العلة أو تخفيفها الذي هو غاية تأثير الطبيب" (١٣٠).

هذا كان تفسير ابن قيم الجوزية في العلاقة بين الروح المعنوية للمريض ومقاومته للمرض وتأثير ذلك على العلاج. وهذا التفسير لا يختلف كثيراً عن رأي الطب الحديث: فإذا أردنا إعادة صياغة هذا الشرح على ضوء المعرفة التي توصل إليها علم الطب الحديث فإننا نقول: إن رفع الروح المعنوية للمريض يؤدي إلى تقوية جهاز المناعة لديه (وهي عملية بيولوجية خلوية كيميائية معقدة) فيساعد ذلك على دفع العلة أو تخفيفها.

ولمن أراد المزيد من المعرفة عن هديه ﷺ في مجال الطب يمكنه الرجوع إلى أحد كتب الطب النبوي.

بدايات تنظيم الطب في الحضارة العربية الإسلامية

من كل ما تقدم يظهر لنا أن اللبنة الأساسية لتنظيم الطب في الحضارة العربية الإسلامية (وهو موضوع كتابنا هذا) وضعت في عهد النبوة:

- أن لا يمارس العلاج إلا من كان مؤهلا لذلك وهو الطبيب.

- لا يضمن الطبيب الشفاء للمريض؛ فالشفاء من عند الله.

- يضمن الطبيب للمريض أن يبذل عنايته وجهده وعلمه في تشخيص المرض، والبحث عن العلاج المناسب واستخدامه.

- يضمن الطبيب للمريض أن يكون مطلعاً على طرق العلاج المتعارف عليها في عصره.

- الطبيب الجاهل يكون مسؤولاً عن أي خطأ يصدر منه ويجلب الضرر للمريض نتيجة لجهله.

- الطبيب الأحذق (من الأطباء الذين يمكن الوصول إليهم) هو الأولى بتولي العلاج.

- أهمية التعليم المستمر في الطب حتى لا يكون الطبيب جاهلاً بالجديد في الطب فيقع في المحظور، ولكي يصل إلى مرتبة الطبيب الحاذق.

- منع التداوي بالمحرمات:

قال ﷺ: "إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا، ولا تتداووا بالمحرمً" (١٣١).

- هناك طرق علاجية يستحب استخدامها (مثل الحجامة)، وطرق علاجية لا تستخدم إلا عند الضرورة (مثل الكي).

- جميع طرق العلاج التي كانت سائدة في الجاهلية ونهى عنها الإسلام مثل السحر والكهانة والعرافة والتمائم... وغيرها من طرق الشعوذة - وقد مر معنا ذكرها - مُنع استعمالها في العلاج.

عزيزي القارئ، بعد قراءتنا لهذا الفصل أعتقد أننا نستطيع الإجابة سوياً عن بعض الأسئلة، ونُعمل العقل فيها ونضمرها في عقولنا ونحاول الإجابة عن عكسها عن حاضر العرب والمسلمين.

- لماذا تقدمت العلوم في الحضارة الإسلامية؟

- لماذا كان للطب قصب السبق عن العلوم العقلية الأخرى في الحضارة الإسلامية؟

- هل صحيح ما ادعاه البعض بأن العرب لم يعرفوا طب اليونان إلا بعدما بدأ عصر الترجمة؟

- هل صحيح ما ادعاه البعض عن حسن نية وخطأ في الاجتهاد، أو ما ادعاه البعض عن سوء نية وغرض مبيّت، بأن الإسلام لم يأت إلا ببعض القواعد

العامة في الصحة والطب، وأن الطب على امتداد عهد الخلفاء الراشدين ما هو إلا امتداد للطب التقليدي في الجاهلية؟

- هل صحيح أن البذرة الأولى في تطور الطب العربي في الحضارة الإسلامية زرعت عند بدء عصر الترجمة؟

أعتقد سيدي القارئ أنك وجدت الإجابة على هذه الأسئلة فيما مرّ معنا.

أهم سمات الطب العربي في فجره

- تحريم وتجريم العلاج بالخرافات التي كانت عالقة بالطب الموضوعي في عصر الجاهلية، مثل العرافة والكهانة والتمائم... وغيرها، وقد مر ذكر ذلك.

- العلاج لدى الأشخاص المؤهلين بغَضِّ النظر عن عقيدتهم، وهذا التسامح والذي استمر عبر عصور الحضارة الإسلامية هو الذي أدى إلى ظهور كثير من الأطباء غير المسلمين في هذه الحضارة، وهؤلاء وإن كانوا غير مسلمين ديانة فإن ثقافة الحضارة التي عاشوا فيها غلبت عليهم فكانت ثقافة وقيم الكثير منهم إسلامية.

- الحث على التداوي، وكانوا يتداوون بالأدوية المفردة.

- الحث على البحث عن أدوية جديدة. فوُضعت البذرة الأولى للبحث العلمي.

- بيان فضل بعض الأدوية مثل العسل، السنا، الحبة السوداء. فزاد استعمالها.

- وقف التعامل بالأدوية المحرمة.

- إلى جانب التداوي بالأدوية المفردة استخدموا طرق العلاج المعروفة في ذلك الوقت، والتي استمرت طوال فترة الحضارة الإسلامية بعد تطويرها وتحسينها: من استخراج وحجامة وفصد وبط وبذل وكي.

- ظهور الطب الروحاني المؤدي إلى تقوية الروح وتقوية النفس ليعاونا في دفع الداء وقهره[١٣٢].

- وضع النظم الأولى في تنظيم مهنة الطب.

- البدء باستعمال الأدوية المركبة بعد اتساع رقعة الدولة.

أطباء اشتهروا في هذه المرحلة:

أهم الأطباء الذين عرفوا ووصلت أخبارهم إلينا من صدر الإسلام:

الحارث بن كلدة.

الحارث بن كعب.

الشمردل الكعدي.

ومن الدولة الأموية أشتهر:

ابن آثال.

تياذوق.

أبو الحكم الدمشقي وابنه وحفيده الذي عاصر بداية دولة بني العباس.

ماسرجويه.

وهكذا بزغت خيوط فجر الطب العربي الأولى رويداً رويداً لتتساقط أمامها حواجز ظلمات جهل العقول والنفوس الحاجبة للحقيقة والمعرفة، سواء المخبأة في السراديب والخزائن، أو المجهولة التي لم يحن أوان ظهورها.

وأحداث هذا الفصل لم تنته بنهايته فهي متداخلة في أحداث الفصل التالي، ولكي لا نقع في التكرار فإن بداية الفصل التالي هي خاتمة هذا الفصل.

هوامش الفصل الثاني من الباب الأول

١- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٤-٣٨٥.

٢- المصدر السابق نفسه ص ٤٧٩.

٣- من أراد التعرف على حضارة ثمود فليرجع إلى محمد عبدالحميد مرداد: مدائن صالح - تلك الأعجوبة، جدة:المكتبة الصغيرة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٤- خالد الحديدي: لابد من صنعاء، نقلا عن ابن النفيس: شرح فصول أبقراط، تحقيق يوسف زيدان؛ وماهر عبد القادر ص ٨.

٥- ابن الأثير:الكامل في التاريخ ١/ ٨٠.

٦- سعد بن خلف العفنان: حقيقة العرب ص ٢٥.

٧- مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٦.

٨- المصدر السابق نفسه ص ٤٧٩.

٩- محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٢/ ١٩٤.

١٠- المصدر السابق نفسه ٢/ ٢٠٠.

١١- المصدر السابق نفسه ٢/ ٣١١.

١٢- المصدر السابق نفسه ٢/ ٣٥٩.

١٣- المصدر السابق نفسه ٣/ ٣٥٢.

١٤- المصدر السابق نفسه ٣/ ٣٥٣.

١٥- المصدر السابق نفسه ٣/ ٣٤٠-٣٤١.

١٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١/ ١٧.

١٧- المصدر السابق نفسه ١/ ١٨.

١٨- زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ص ٢٨١.

١٩- الحجامة: امتصاص الدم بالمحجم.

٢٠- الفصد: شق الوعاء الدموي (شريان أو وريد) لإخراج مقدارٍ معيّنٍ من الدم بقصد العلاج.

٢١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١/ ١٣، وأيضا مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٩.

٢٢- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١٣/١.

٢٣- المصدر السابق نفسه ١٣/١-١٧.

٢٤- بمعنى: الجماع.

٢٥- Major: A History of Med. Vol.1 p.223.

٢٦- Ibid. vol.1 p.225.

٢٧- سورة العلق آية ١-٥.

٢٨- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ص ٦٨٢.

٢٩- سورة الأنفال آية ٢٢.

٣٠- سورة الرعد آية ٣.

٣١- سورة العنكبوت آية ٢٠.

٣٢- سورة فاطر آية ٢٨.

٣٣- سورة المجادلة آية ١١.

٣٤- سورة الزمر آية ٩.

٣٥- سورة طه آية ١١٤.

٣٦- أخرجه ابن ماجه.

٣٧- رواه مسلم.

٣٨- أخرجه الترمزي وابن ماجه.

٣٩- رواه الطبراني وصاحب الترغيب والترهيب ومجمع الزوائد (نقلاً عن أضواء على البحث والمصادر ٨).

٤٠- مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٥.

٤١- المصدر السابق نفسه ص ٥٤٦.

٤٢- ماهر عبد القادر محمد: دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي ص ٢٧.

٤٣- ابن النفيس: شرح فصول أبقراط ص ٩. وأيضاً عكاوي: الموجز في تاريخ الطب عند العرب ص ٧٨.

٤٤- سورة الذاريات آية ٥٦.

٤٥- سورة النور آية ٦١.

٤٦- سورة البقرة آية ١٩٦.

٤٧- سورة البقرة آية ١٨٤.

٤٨- أخرجه مسلم.

٤٩- أخرجه البخاري ومسلم.

٥٠- سورة التكاثر آية ٨.

٥١- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي ص ١٨٨.

٥٢- أخرجه الترمذي.

٥٣- أخرجه الترمذي.

٥٤- أخرجه البخاري.

٥٥- أخرجه أحمد.

٥٦- أخرجه الترمذي.

٥٧- سورة المائدة آية ٦.

٥٨- سورة العنكبوت آية ٤٥.

٥٩- سورة الحج آية ٢٦.

٦٠- سورة الحج آية ٢٧.

٦١- سورة البقرة آية ١٩٧.

٦٢- سورة البقرة الآيتان ١٨٣-١٨٤.

٦٣- سورة الإسراء آية ٣٢.

٦٤- سورة النور آية ٣.

٦٥- سورة الأنعام آية ١٥١.

٦٦- أخرجه ابن ماجه.

٦٧- سورة الأعراف الآيتان ٨٠-٨١.

٦٨- سورة هود آية ٨٢.

٦٩- سورة البقرة آية ٢٢٢.

٧٠- سورة المائدة الآيتان ٩٠-٩١.

٧١- من أراد الإطلاع على المزيد عن الطب النبوي، يمكنه الرجوع إلى أحد كتب الطب النبوي المذكورة في هذا الكتاب.

٧٢- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي ص ١٩١.

٧٣- أخرجه الترمذي.

٧٤- أخرجه أحمد.

٧٥- أخرجه مسلم.

٧٦- أخرجه الترمذي.

٧٧- أخرجه البخاري.

٧٨- أخرجه أبو داود.

٧٩- أخرجه ابن ماجه.

٨٠- أخرجه أبو داود.

٨١- رواه الخمسة.

٨٢- الأكب: الزبالة.

٨٣- أخرجه الترمذي.

٨٤- رواه البخاري.

٨٥- رواه البخاري.

٨٦- رواه البخاري.

٨٧- عكاوي: الموجز في تاريخ الطب عند العرب ص ٩٥.

٨٨- المستشرق سيريل الجود هو من ادعى ذلك.

٨٩- ابن سينا: القانون في الطب ٩/١.

٩٠- المصدر السابق نفسه ١٣/١.

٩١- مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٥.

٩٢- سورة الذاريات آية ٥٦.

٩٣- سورة الأحزاب آية ٧٢.

٩٤- سورة الشعراء آية ٨٠.

٩٥- زهير السباعي: خلق الطبيب المسلم ص ٥٦.

٩٦- سورة الصافات آية ١٤٥-١٤٦.

٩٧- سورة الإسراء آية ٨٢.

٩٨- سورة النحل آية ٦٩.

٩٩- أخرجه مسلم.

١٠٠- أخرجه أحمد والترمذي.

١٠١- أخرجه أحمد.

١٠٢- أخرجه مسلم.

١٠٣- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١٣/٢.

١٠٤- أخرجه الترمزي وابن ماجه.

١٠٥- الموطأ ٣٢٨/٤.

١٠٦- أخرجه أبو داود.

١٠٧- أبو اليزيد علي المتيت: جرائم الإهمال ص ٢٧٤.

١٠٨- أخرجه أحمد.

١٠٩- أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم

١١٠- أخرجه أحمد وأبو داود.

١١١- أخرجه أحمد وأبو داود.

١١٢- أخرجه أبو داود.

١١٣- أخرجه أحمد والبيهقي والحاكم.

١١٤- سورة طه آية ٦٩.

١١٥- داود الأنطاكي: تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب: ص ١٦.

١١٦- ظهرت في العصر الحديث كتب كثيرة تناولت موضوع الطب النبوي.

١١٧- أخرجه البخاري.

١١٨- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي ص ٢٥.

١١٩- أخرجه البخاري.

١٢٠- أخرجه البخاري.

١٢١- أخرجه مسلم.

١٢٢- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي ص ٥٧.

١٢٣- البط: يقال بط الدمل أي شقه، والمقصود هنا: الشق الجراحي باستعمال المبضع وغيره.

١٢٤- أخرجه أبو يعلى.

١٢٥- أخرجه الترمذي وابن ماجه.

١٢٦- ارجع إلى الهامش ١٩ من هذا الفصل.

١٢٧- ارجع إلى الهامش ٢٠.

١٢٨- أخرجه البخاري.

١٢٩- أخرجه ابن ماجه.

١٣٠- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي ص ١٠٣.

١٣١- أخرجه أبو داود.

١٣٢- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي ص ١٢.

الفصل الثالث

ضحى الطب العربي

(مرحلة الترجمة والنقل)

اللقاء:

كما قلنا سابقاً إنه ليست هناك حدود فاصلة بين مرحلة والتي تليها، بل إن المرحلة التالية قد تبدأ قبل نهاية المرحلة السابقة بفترة، لتسير المرحلتان سوياً لزمن قد يطول أو يقصر، فمرحلة البدايات والجذور تتداخل مع مرحلة النقل والترجمة، وهذه بدورها تداخلت مع مرحلة النضج والإبداع.

ولكي نفهم مرحلة النقل وحركة الترجمة، ونتفهم أسبابها ودوافعها وكونيتها ولا نكرر ما قاله بعض المستشرقين من مقولات، من كثرة تكرارها تحولت إلى بديهيات أو مسلمات يتبناها القارئ بدون تمعن، ويكتبها الكاتب بدون تفكير، علينا الرجوع إلى ذلك العصر ليس بفكرنا فقط، بل بوجداننا أيضا، ولنتخيل الصورة العامة عند خروج العرب المسلمين من جزيرتهم والتقائهم بشعوب المناطق التي فتحت بإذن ربها.

طرفا اللقاء:

الطرف الأول: العرب المسلمون أصحاب رسالة يريدون نشرها، وعقل يريدون تدبيره، وفكر يريدون تجديده، ومعرفة يريدون الوصول إليها، وتجربة

يريدون صقلها، كل هذا تنفيذاً لتعاليم دينهم. جالبين معهم فطرة صافية، وسماحة لا تجد غضاضة في طلب الحكمة ولو من المخالف في العقيدة، مما أشاع جواً من الحرية الفكرية ندرت في التاريخ.

الطرف الثاني: شعوب ذات ماضٍ حضاري مطموسة معالمه، تعاني القهر المادي سلطوياً، والقهر العقائدي كنسياً، والقهر الفكري كمناخ عام يرفض إعمال العقل والفكر لمخالفة ذلك لعقائد الكنسية السائدة، ويرفض المعرفة العلمية والفلسفية التي توصلت إليها الإنسانية إلى ذلك العهد، لاعتبارها بقايا وثنية، فخزّنت المعرفة في بطون الكتب في أقبية الأديرة وخزائن القصور وأوصد عليها، ففرغت العقول، إلا من بعض قليل احتفظ ببعض المعرفة وبعض الكتب.

وفي مناخ التسامح وإطلاق الفكر اللذين شاعا على أراضي الدولة الجديدة التقى الطرفان، ليس كالتقاء البعثات العلمية في عصرنا الحاضر الخارجة من دول العالم الثالث الذاهبة إلى الغرب لتتلقى العلم، أو حتى خروج الإنسان العادي في عصرنا هذا من عالمنا الثالث إلى الغرب، ففي كلتا الحالتين يخرج الإنسان إلى عالم مزدهر حضارياً، وكتب منتشرة ومعرفة متوفرة وعلم يتراكم وعقل يعمل، فيأخذ هذا الإنسان ما يأخذ ويستنبط ما يستنبط، ويرجع إلى وطنه فيفرغ ما عنده، ويسهم بشكل ما في تطويره.

أيضا ليس كاللقاء الذي تم في العصور الوسطى بين الإنسان الآتي من ظلمات جهل أوروبا إلى مناطق الحضارة الإسلامية، حيث التقى هذا الأوروبي بحضارة مزدهرة منتشرة ومعرفة متوفرة وعلم متراكم، وعقل يفكر وفكر يتدبر

تحت مظلة من التسامح لا مثيل لها في التاريخ، فأخذ هذا الأوروبي ما أخذ واستنبط ما استنبط، ورجع إلى بلاده، فاستخدم ما تعلمه من العرب بعد أن نسبه إلى نفسه أو إلى أجداده، وتناسى عن عمد أن ينسب الحقوق إلى أصحابها، وبنى على ما تعلمه وورثه من العرب بناء قوياً بجدّه واجتهاده فأوصله هذا إلى ما هو عليه اليوم من تقدم وحضارة. وان كنا لا ننكر عليه جده واجتهاده في بناء الحضارة الحديثة، فإننا ننكر عليه إنكاره لفضل معلميه من العرب في وضع أسس هذه الحضارة، فالعرب لم ينكروا فضل اليونان في تأسيس حضارتهم وحرصوا على نسب الحقوق لأصحابها مع أنهم كان باستطاعتهم إنكار ذلك.

قال فون ناتسهايم: "لقد برع العرب في علم الشفاء إلى حد اعتقد المرء فيه أنهم مؤسسو هذا الفن، وقد كان بإمكانهم أن يدّعوا ذلك بسهولة لو أنهم لم يكثروا من إيراد الأسماء اللاتينية واليونانية" [1].

أما اللقاء الذي تم بين المسلمين الأوائل والشعوب الأخرى في ذلك الزمن فكان لقاء بين المسلمين بوصفهم الناشرين لرسالة، الراغبين في المعرفة، المحكمين لعقولهم وفكرهم، الجالبين معهم لغة عريقة بها نزلت الرسالة، وبها دونت شرائعها، ولم يدون بها من المعرفة الإنسانية السابقة إلا القليل، وبين شعوب مر علينا نعتهم، حفدة حضارة كانت مزدهرة، أغلقت الخزائن على إنجازاتها، باحثين عن الحرية راغبين في السماحة الفكرية لتسمح لهم في الوصول إلى المعرفة التي يملكونها ولا يعلمونها، متحدثين بلغات بها المعرفة الإنسانية دونت في الكتب المغلق عليها.

والتقى الطرفان والتقت الرغبات فتوفرت العوامل النفسية والبيئية الضروري وجودها لكي يأخذ العلم وتأخذ الحضارة منحىً جديداً في التاريخ، وبدأت الكتب المحبوسة تظهر رويداً رويداً وبدأت المعرفة تنقل من لغة إلى لغة أخرى أولاً باستحياء، كأن الطرف الثاني الذي عاش سنوات الانغلاق الفكري والقهر المذهبي الكنسي غير مستوعب للحرية الفكرية العلمية الآتية من المسلمين، ولكن تحت إلحاح وحث الطرف الآخر ورسوخ تقاليد حرية الفكر بدأت الكتب تخرج وتدرس وتنقل أولاً إلى لغة القوم الذين هي لهم، ثم إلى لغة الفاتح وحامل الرسالة، وبعد تبني الدولة رسمياً لحركة النقل والترجمة إلى العربية؛ تتحول الحركة إلى هدير، ولتصبح اللغة العربية لغة العصر واللغة الأولى عالمياً، لغة الفكر والعلوم، وقبل هذا وبعد ذلك لغة القرآن ولغة الرسالة.

مما سبق يتبين لنا الخلل في بعض المقولات التي تكررت من بعض المستشرقين ولا تزال تتكرر، وأيضاً كررتها أقلام عربية ولا تزال تكررها، حتى أصبح البعض يتقبلها بدون تفكير مثل:

١- أن الحضارة الإسلامية نتجت من التقاء شعب متأخر حضارياً بشعوب مزدهرة حضارياً فأخذ منها وبنى حضارته.

٢- أو يصيغوا ذلك بطريقة أخرى فيدّعوا أن العرب خرجوا لينشروا الإسلام، ففتحوا بلاداً فيها شعوب متقدمة حضارياً، وبدخول هؤلاء الإسلام قاموا بنقل ما لديهم إلى العربية مما أدى إلى ازدهار الحضارة الإسلامية.

٣- أو البعض الذي يقول أن حاجتهم إلى علوم الآخرين لحل ما فرض الإسلام عليهم من مشاكل ومعضلات جديدة!

٤- بل البعض أرجع بدء حركة الترجمة إلى الدولة العباسية، وأرجع ذلك إلى الطابع الخاص والعقلية الجديدة لهذه الدولة، لم تكن تعهد في تاريخ الأمة الإسلامية من قبل؛ ألا وهو طلب العلم مهما كان نوعه، وإجراء البحوث العلمية، وهو يُرجع هذه العقلية الجديدة والطابع الخاص إلى تأثير الفرس في هذه الدولة!

وليس معنى هذا إنكارنا لجذور الحضارة العربية الإسلامية في الحضارات الأخرى، فقد مر معنا أنه لا توجد حضارة تبرز من العدم، وكل حضارة تجد جذورها فيما سبقها من الحضارات، والمعرفة الإنسانية كالبناء الشاهق يتراكم بعضه فوق بعض. وفي لحظة من لحظات التاريخ تأتي أمة معينة توفرت لها الظروف البيئية والنفسية لتقود الحضارة وتستلم بناء المعرفة، فتهدم ما يجب هدمه، وتضيف إليه كل جديد ثبت صلاحه، وتقوم بدورها الحضاري في التاريخ، ولتسلمه آجلاً أو عاجلاً للأمة التي تليها.

التدوين والتأليف الطبي في البدايات:

لقد مر معنا أن العرب كانوا على اطلاع بالطب الإغريقي السائد في ذلك الوقت في المناطق القريبة من جزيرتهم منذ العصر الجاهلي عن طريق أشخاص مثل الحارث (الحرث) بن كلدة، الذي درس الطب في قاعدته في ذلك الوقت

"جنديسابور"، وطاف في فارس، وكذلك عن طريق ابنه النضر. ومن المؤكد أن الحارث قد استفاد من علمه هذا في ممارساته الطبية وأفاد من حوله به، ولكنه لم يعتنِ بالتدوين حيث ليس له غير كتاب واحد: " كتاب المحاورة في الطب بينه وبين كسرى أنو شروان"[٢].

هذا أيضاً ينطبق على أطباء بدايات المرحلة التي نكتب عنها الذين نشؤوا وترعرعوا في بلدانهم تحت تأثير ثقافات أخرى. وبدخول مناطقهم هذه تحت الحكم الإسلامي أصبح هؤلاء أفراداً في المجتمع الجديد - وإن لم يسلم بعضهم - والتحقوا بخدمة الحكام الجدد، واستفادوا من علمهم الذي كانوا عليه من الطب الإغريقي في ممارساتهم الطبية العلمية وفي محاوراتهم، ولكن بعضهم لم يترك لنا أية كتب سواء كانت موضوعة أو منقولة.

مثل "ابن آثال" طبيب معاوية بن أبي سفيان ومعاصره "أبو الحكم الدمشقي". (ولنا مع هذين الطبيبين قصة سنوردها بعد قليل).

والبعض الآخر وإن ترك بعض المؤلفات الطبية فإنها كانت ذات أهمية علمية قليلة، ومثال من هؤلاء تياذوق طبيب الحجاج بن يوسف الثقفي الذي له من الكتب " الكناش الكبير"[٣] ألفه لابنه، وكتاب إيدال الأدوية وكيفية دقها وإيقاعها وإذابتها وشيء من تفسير أسماء الأدوية"[٤].

تأثر أطباء الحضارة العربية الإسلامية بالقيم الإسلامية:

ولنرجع مرة أخرى إلى "ابن آثال"، "وأبي الحكم" لنحكي عنهما حكاية لغاية نود إيضاحها:

لقد مر معنا كيف أنه عندما رسّخت الدولة الجديدة قواعدها، ونمى المجتمع الإسلامي سادت الثقافة الإسلامية بكل قيمها، لتصبح ثقافة كل قاطني هذه الدولة من مسلمين وغير مسلمين، وإن ذلك ظاهر في كتاباتهم. ونورد حكاية هذين الطبيبين وحكاية طبيب ثالث ظهر بعدهما بعدة عقود عندما رسخت وسادت هذه الثقافة في العقول والنفوس؛ لبيان تأثيرها على السلوك.

لقد نشأ وترعرع هذان الطبيبان قبل دخول الإسلام منطقتهما وقبل رسوخ ثقافته وقيمه في النفوس، وإننا نجد في سلوكهما ضَعفاً في التمسك بالقيم الدينية " لا تقتل" التي نادت بها كل الأديان، وبالتالي أدى إلى ضعف التمسك بالأخلاقيات المهنية.

كتب ابن أبي أصيبعة في كتابه "عيون الأنباء في طبقات الأطباء " عن ابن آثال:

"كان متقدماً ومن الأطباء المتميزين في دمشق، نصراني المذهب، ولما ملك معاوية بن أبي سفيان دمشق اصطفاه لنفسه وأحسن إليه... وكان ابن آثال خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وقواها، وما منها سموم قواتل، وكان معاوية يقربه لذلك كثيراً، ومات في أيام معاوية جماعة كثيرة من أكابر الناس والأمراء من المسلمين بالسم"(٥).

وعن أبي الحكم الدمشقي كتب: "كان طبيباً نصرانياً عالماً بأنواع العلاج والأدوية، وله أعمال مذكورة وصفة مشهورة، وكان يستطبه معاوية بن أبي سفيان ويعتمد عليه في تركيبات أدوية لأغراض قصدها منه"(٦).

بعد هذا بعدة عقود نشأت أجيال من الأطباء من مسلمين وغير مسلمين تحت مظلة الحكم الإسلامي، وسادت الثقافة الإسلامية وقيمها، وترسخت في العقول والنفوس، وبتأثيرهما تمسك هؤلاء بكل ما هو سامٍ من قيم وأخلاق نادت بها الأديان والأعراف، وظهر الطرف الثالث في هذه الحكاية طبيبنا "حنين بن إسحاق" (ولنا معه وقفة أخرى عن النقل والترجمة)، فقد أورد طبيبنا ومؤرخ الطب الكبير ابن أبي أصيبعة حكاية حنين بن إسحاق مع الخليفة العباسي، وهي حكاية طويلة سنحاول أن نختصرها:

طلب الخليفة من حنين أن يصف له دواء ليقتل به عدواً، فرفض حنين ولم يفد معه أي ترغيب أو ترهيب من طرف الخليفة، فأمر بحبسه وظل حنيناً محبوساً لمدة سنة في أحد القلاع قضاها في النقل والتفسير والتصنيف، وأخباره تصل يوماً بيوم إلى الخليفة.

وبعد مرور السنة أحضره الخليفة مرة أخرى وأحضر السيف والنطع ليرهبه وكثيراً من الأموال ليرغبه، وطلب منه مرة أخرى مطلبه السابق، وخيّره بحزم بين الاستجابة والحصول على المال أو الرفض فالقتل. ورغم ذلك رفض حنين وقال: "لي رب يأخذ بحقي غداً في الموقف الأعظم. فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل"، عندها تبسم الخليفة وقال: "طِبْ نَفساً وثِقْ إلينا، فهذا الفعل كان منا لامتحانك، لأنا حذرنا من كيد الملوك، وأعجبنا بك، فأردنا الطمأنينة إليك، والثقة بك لننتفع بعملك". وبعدها سأل الخليفة حنين عما منعه من الاستجابة لطلبه، وقد علم من صدق العزيمة، فقال حنين قولته المشهورة:

"شيئان يا أمير المؤمنين. قال: وما هما؟ قال: الدين والصناعة. قال: فكيف؟ قال: الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا، فكيف أصحابنا وأصدقاؤنا، ويبعد ويحرم من لم يكن كذا. والصناعة (يقصد سلوكيات المهنة) تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس؛ لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم، ومع هذا فقد جعل الله في رقاب الأطباء عهداً مؤكداً بأيمان مغلظة أن لا يعطوا دواء قتّالاً، ولا ما يؤذي. فلم أود أن أخالف هذين الأمرين من الشريعتين"[٧].

يحيى النحوي الإسكندراني:

ومن الشخصيات التي نشأت وترعرعت قبل الفتح الإسلامي، ثم أدركت صدر الدولة الإسلامية، شخصية يحيى النحوي، وهي شخصية غامضة مختلف عليها، له اختلافات مع كنيسته، فحُرم منها، أدرك الفتح الإسلامي، ودخل على عمرو بن العاص، فأكرمه، ورأى له موضعاً [٨]. وكان قوياً في علم النحو والفلسفة والمنطق لهذا أُلحق بالفلسفة، واعتبر من الفلاسفة المميزين في عصره. إلى جانب هذا كان له كتب كثيرة في الطب اليوناني معظمها تفسير لكتب جالينوس.

وتكمن أهميته أن الأطباء العرب ومؤرخي الطب في ذلك الزمن اعتبروه أحد المصادر الرئيسة لتاريخ الطب اليوناني. هكذا فعل ابن النديم في فهرسه[٩] وهكذا فعل ابن أبي أصيبعة في "عيون الأنباء في طبقات الأطباء "[١٠]، وهكذا فعل غيرهم.

أهدن القس (القس أهدن بن أعين الإسكندراني):

من الأطباء الإسكندرانيين، ظهر في صدر الدولة الإسلامية، يفيد القدماء بأنه كتب كتبه بالسريانية[١١]، ومنها نقلها ماسرجيس (ماسرجويه) إلى العربية. بينما يفيد المحدثون بأنه وضع كتبه باليونانية أولاً، ثم نقلت إلى السريانية، وعنها نقلها "ماسرجيس" إلى العربية [١٢]، وله من الكتب "كتاب الكناش"، وجعله ثلاثين مقالة.

نقل وترجمة العلوم الطبية إلى العربية

لقد مر معنا كيف أن الاتصال بين العرب والحضارات الأخرى في مجال الطب قد تم قبيل الإسلام وفي صدر الإسلام عن طريق رجال مثل الحارث بن كلدة الثقفي، وعن طريق مثقفي المناطق التي فتحها الإسلام.

وفي البداية كان الاحتكاك والممارسة والمحاورة المباشرة أهم طرق الاتصال، وهذه الطرق من الاتصال توصل إلى - أو تنقل من - ما هو شائع وسائد وممارس من المعرفة، ولا تساعد في الوصول إلى - أو نقل - المعرفة الموجودة في الكتب المخبأة فعلياً في المخازن أو التي يصعب الوصول إليها بسبب حاجز اللغة. والاتصال الحقيقي بالحضارات القديمة وبكنوز المعرفة الإنسانية تم عندما بدأت ترجمة ونقل هذه المعرفة من لغتها الأصلية أو اللغات الأخرى المنقولة إليها إلى العربية.

كثير من المؤرخين يُصرّون على أن حركة الترجمة إلى السريانية والعربية بدأت في العصر العباسي، ويقسمون مراحلها تقسيماً ثلاثياً:

المرحلة الأولى: من عام ١٣٦هـ - ١٩٨هـ

المرحلة الثانية : من عام ١٩٨هـ - ٣٠٠هـ

المرحلة الثالثة : من عام ٣٠٠هـ - ٣٥٠هـ

بينما هناك بعض آخر لديه دلائل أن حركة النقل بدأت في عهد مبكر من الدولة الأموية[١٣]، لذا فإننا في هذا الكتاب سوف لن نستخدم التقسيم الثلاثي أو غيره من التقسيمات، بل نقسّم حركة النقل (ونقصد به نقل العلوم الطبية) إلى مرحلتين:

الأولى: المرحلة المبكرة أو المرحلة الفردية أو مرحلة ما قبل تبني الدولة ورعايتها لحركة النقل والترجمة، وتمتد من أوائل الدولة الأموية إلى بداية عهد الخليفة المنصور في الدولة العباسية.

الثانية: مرحلة تبني الدولة ورعايتها لحركة النقل والترجمة.

مرحلة ما قبل تبني الدولة لحركة النقل والترجمة:

وفيها قام أفراد مدفوعون بحبهم للعلم، وشغفهم بالبحث عن المعرفة، وخاصة بعد أن وفّر لهم الإسلام غطاء الحرية بالترجمة، وكان غالبية النقلة من السريان المتكلمين للغتين أو أكثر، وفي البدء كان غالبية المنقول من اليونانية إلى السريانية، والقليل من اليونانية مباشرة أو السريانية إلى العربية، وذلك يرجع إلى عدة أسباب:

١- عرف عن النساطرة ضنّهم بعلمهم على غيرهم.

٢- اعتقادهم بأن اللغة العربية لا تستطيع استيعاب العلوم الغريبة عنها، وقد أثبتت الأيام خطأهم[١٤].

٣- عدم تملكهم لناصية اللغة العربية، ولهذا كانوا في كثير من الأحيان يترجمون كتاباً للغة السريانية ثم يقوم آخرون بنقله من السريانية إلى العربية.

أما الشخصية المحورية لحركة النقل في هذه المرحلة، والتي يجب التوقف عندها لدورها الريادي، وما أعطته من دعم مادي ومعنوي لنقل المعرفة من اللغات الأخرى إلى العربية على الرغم من قلة معلوماتنا عنها، ومن المؤكد أن كتب التاريخ لم تنصف هذه الشخصية، فالواصل عنها أقل بكثير عن الدور الكبير والعظيم الذي قامت به في نقل المعرفة الإنسانية إلى اللغة العربية، وبالتالي ما لها من دور أساسي في إرساء قواعد الحضارة العربية الإسلامية. فكتاب ضخم مثل "الكامل في التاريخ " لابن الأثير لم يفرد لها إلا سطر واحد عند ذكر وفاة والده يزيد بن معاوية حيث يقول عند التحدث عن أبناء يزيد:"وخالد ويكنى أبا هاشم يقال: إنه أصاب علم الكيمياء ولا يصح ذلك لأحد"(١٥).

ودائرة المعارف الإسلامية لم تفرد له أي مادة تحت اسمه (خالد بن يزيد بن معاوية). وقد ترجع قلةُ المعلومات عنه وعن كتبه التي لم يصل إلينا شيء منها، كونه أميراً أموياً، وكما نعلم فإن معظم ما وصل إلينا من كتب؛ كتبت في العصر العباسي، أي في عصر الدولة التي حاولت أن تطمس كل إنجازات الدولة الأموية.

ولأهمية هذه الشخصية نود أن نورد هنا ما كتب عنها في عدة مصادر ومراجع وسنجد أن المكتوب عنها قليل، ولكن من هذا القليل نستشف عظمة الدور التاريخي الذي قامت به هذه الشخصية:

ورد في الأعلام لخير الدين الزركلي تحت مادة خالد بن يزيد بن معاوية:

"خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي، أبو هاشم حكيم قريش وعالمها في عصره. اشتغل بالكيمياء والطب والنجوم، فأتقنها وألفّ فيها رسائل. اختلفوا في سنة وفاته إلى أن قال الذهبي: وفيها - أي سنة ٩٠- على الأصح توفي خالد بن يزيد. وكان موصوفاً بالعلم والدين والعقل. وقال البيروني: كان خالد أول فلاسفة الإسلام. وقال الجاحظ: خالد بن يزيد خطيب شاعر، وفصيح جامع، جيد الرأي، كثير الأدب، أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء " (١٦).

وكتب ابن خلكان في وفيات الأعيان:

"أبو هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي، كان من أعلم قريش بفنون العلم، وله كلام في صناعة الكيمياء والطب، وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته، وأخذ الصناعة عن رجل من الرهبان يقال له مريانس الراهب الرومي، وله فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداهن ما جرى له مع مريانس الراهب المذكور، وصورة تعلمه منه، والرموز التي أشار إليها، وله فيها أشعار كثيرة مطولات ومقاطيع دالة على حسن تصرفه وسعة علمه" (١٧).

وكتب ابن النديم عنه في الفهرست:

"خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: إسلامي محدث. قال محمد بن إسحاق الذي عني بإخراج كتب القدماء في الصنعة: خالد بن يزيد بن معاوية كان

خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ذا رأي، وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء، وكان جَواداً، يقال: إنه قيل له: لقد فعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة، فقال خالد: ما أطلب بذاك إلا أن أغني أصحابي وأخواني، إني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني، فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة، فلا أحوج أحداً عرفني يوماً أو عرفته إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة. ويقال: والله أعلم إنه صح له عمل الصناعة، وله في ذلك عدة كتب ورسائل، وله شعر كثير في هذا المعنى، رأيت منه نحو خمسمئة ورقة، ورأيت من كتبه: كتاب الحرارات، كتاب الصحيفة الكبير، كتاب الصحيفة الصغير، كتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة " (١٨).

إن الدور التاريخي الذي قام به هذا الفتى الأموي أكبر بكثير مما كتب عنه، إنه كان الحلقة الأولى من سلسلة طويلة استمرت عقوداً بل قروناً، فيها تم نقل كنوز المعرفة الإنسانية إلى اللغة العربية، وبخطوته هذه أعطى القدوة للأجيال القادمة للسير على دربه الذي أصاب به عصفورين بحجر:

أولاً: حفظ هذه الكنوز من الضياع ووضع اللبنة الأساسية اللازمة لتطور أي حضارة.

ثانياً: كان أمامه طريق آخر للوصول إلى هذه المعرفة وهو أن يرسل الأفراد لدراسة هذه العلوم في لغاتها الأصلية التي دونت بها، وعندما يرجع هؤلاء؛ يقومون بتدريسها بهذه اللغات، ولو قام بهذا لخدم اللغات الأخرى، ولاقتصر طلب هذه العلوم على فئة قليلة معزولة عن مجتمعها بحاجز اللغة، ولكن لم يفعل

هذا، بل أصر على التعامل مع الحضارات المختلفة بلغته وهي لغة القرآن. وبذلك أتاح أيضاً لأكبر قدر من أبناء هذا المجتمع من الوصول إلى هذه المعارف.

أَفَضَلُ مثل هذا ينكر؟؟

ماسرجويه (ماسرجيس):

ومن أوائل النقلة في هذه المرحلة " ماسرجويه " هكذا ورد في " طبقات الأطباء والحكماء "[١٩] لابن جلجل، وبلفظ "ماسرجويه"، ورد في الفهرست لابن النديم[٢٠]. قام في عهد مروان بن الحكم بنقل "كناش أهدن القس" السابق ذكره من السريانية إلى العربية، والذي كان قد تم نقله من اليونانية إلى السريانية من قبل "جاسيوس"[٢١]، ولم ينشر الكتاب إلا في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز. ولماسرجويه من الكتب: " كتاب قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها"، و "كتاب قوى العقاقير ومنافعها ومضارها".

ومن نقلة هذه الفترة أيضاً "اصطفن القديم"، و"عبدالله بن المقفع" الذي نسب إليه نقل بعض كتب الطب من اللغة الفارسية إلى العربية، ولكن هل هو عبدالله بن المقفع صاحب " كليلة ودمنة" و"الأدب الكبير" و"الأدب الصغير"، أم شخص آخر بنفس الاسم؟ يقول الدكتور عمر فروخ في كتابه "تاريخ الفكر العربي": "ولكن لعل هنالك رجلاً آخر اسمه عبدالله بن المقفع (ابن ساويرس) نقل كتب الفلسفة والمنطق والطب التي ينسب نقلها وهماً إلى عبدالله بن المقفع صاحب كتاب كليلة ودمنة" [٢٢].

وقد كان النقل في هذه الفترة بدائياً وبدون منهجية مقارنة بالفترة التالية عندما بلغت الترجمة أوج نضجها على يد حنين بن إسحاق العبادي.

ففي بدايات النقل والترجمة كان النص يترجم حرفياً كلمة بكلمة إلى اللغة العربية؛ مما كان يسبب في كثير من الأحيان إلى أخطاء شنيعة أقلها ضياع المعنى إن لم يُعطَ معنى مخالفاً للمعنى المراد. وقد وصف ابن النديم أحد هؤلاء: "نقل من السرياني إلى العربي نقلا رديئا"(٢٣).

وكما مر معنا فإنه في كثير من الأحيان كان الكتاب ينقل أولاً من اليونانية إلى السريانية ثم إلى العربية، وهذا النقل أدى في حالات كثيرة إلى البعد عن المعرفة الصحيحة المراد الوصول إليها.

كما أن كثيراً من النقلة الأوائل لم يكونوا من الأطباء أصلاً، ومن كان منهم طبيبا لم يكن متبحراً مما أدى إلى أخطاء في النقل لقلة المعرفة التخصصية لدى الناقل، أو نتيجة لتدخل الناقل بالحذف والإضافة لعدم فهمه المادة المنقولة، أو لمخالفة ما ينقله لقناعاته العلمية أو العقدية.

مرحلة رعاية وتبني الدولة لحركة النقل إلى اللغة العربية

كان القرار الذي اتخذه خالد بن يزيد بن معاوية -وإن لم يكن في موقع السلطة- بنقل المعرفة الإنسانية إلى اللغة العربية في الوقت الذي نفذ أقرباؤه الذين كانوا في السلطة نقل لغة الدواوين (أي لغة الدولة) من الفارسية والرومية إلى اللغة العربية؛ قد أعطى الشرارة الأولى والاتجاه الصحيح لملحمة طويلة استمرت قروناً لحركةٍ فتيةٍ نشطةٍ لا مثيل لها في التاريخ، لنقل المعرفة الإنسانية المخبأة في أقبية الأديرة والقصور وسراديبها، فأنقذتها من عفن الرطوبة ومن تعفن العقول، وبالتالي من الضياع الأبدي، ولتنشرها بين أفراد المجتمع الإسلامي الجديد بكل أجناسه ومِلله، بلغة حية جذورها ضاربة في أعماق التاريخ، تجمعت من أصول سامية فأصبحت هي الأصل وهي الفرع، لغة نزل بها القرآن فسمت على كل اللغات، وزاد غناها بالمنقول إليها من التراث الحضاري الإنساني، الذي هو نفسه اغتنى بهذه اللغة العريقة السلسة المطواعة.

وما هي إلا عقود قليلة تمضي من هذه البداية الصحيحة، حتى تأخذ حركة النقل منعطفاً جديداً وطريقاً سريعاً في اتجاهها إلى القمة، لقد وصل إلى كرسي الخلافة ورأس الدولة العباسية الجديدة خليفة لم تمنعه أمور الحكم والتزاماته، ولا حروبه مع الأقرباء ومع الغرباء لتوطيد حكمه وتوسيع دولة الإسلام من بسط رعايته على الأدباء والعلماء، فقد كان عارفاً بالفقه والأدب، مقدماً في الفلسفة والفلك، محباً للعلماء. إنه الخليفة الثاني للدولة العباسية،

الكريم المعطاء لعلمائه، أبو جعفر المنصور، أول من عني بالعلوم من ملوك العرب، وكان أمره بترجمة كتاب "السند هند الكبير"[٢٤] إلى العربية، وطلبه من طبيبه جورجيوس بن جبرائيل بنقل كُتب كثيرة من كتب اليونانيين إلى اللغة العربية[٢٥] بمثابة إعلان تبني الدولة رسمياً لحركة نقل المعارف الإنسانية إلى اللغة العربية ليكون ثاني أخطر قرار في تاريخ حركة النقل بعد قرار خالد بن يزيد بن معاوية، فمن بعد قرار باني بغداد هذا، تبنت الدولة على كل مستوياتها من الخلفاء والوزراء وعمال الدولة حركة البحث عن المعرفة المخزنة في الكتب المخبأة ونقلها إلى العربية، وانتقل التنافس هذا إلى الأمراء والأغنياء والوجهاء. وشخصيات ظهرت وعائلات عرفت لعقود طويلة بدعمها لحركة النقل، وتوارثت هذا كما توارثت الجاه والمال. فوجدنا عائلات: كآل موسى بن شاكر، والبرامكة، وبني المنجم[٢٦] والحسن بن سهل، وإسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي وعلي بن عيسى، وموسى بن عبد الملك، وعيسى بن يونس الكاتب الحاسب ومنهم علي المعروف بالفيوم اشتهر باسم المدينة التي كان عاملها، وابن المدبر وعبدالله بن إسحاق[٢٧]، وغيرهم.

وعلى درب أبي جعفر المنصور سار خلفاؤه هكذا كان المهدي، فالهادي، وجاء هارون الرشيد. وفي عهده وصلت الدولة إلى أعلى حد من الرقي والثروة، وجمع في بلاطه العلماء والأدباء والأطباء والنَّقَلة. وأصبحت بغداد عاصمة العالم الثقافية، بجانب كونها مركز القرار السياسي الدولي في ذلك العصر. وعهدَ هارون إلى طبيبه "يوحنا بن ماسويه " الإشراف على ترجمة الكتب القديمة، مما وجدت بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون بأن جعله أميناً على الترجمة[٢٨].

وبعد وفاة الرشيد هارون تولى الأمين الخلافة واستمرت حركة النقل بالرغم من الفتن والمعارك التي نشبت بين الأمين وأخيه المأمون طلباً للحكم، ووصل المأمون إلى سدة الخلافة، وبوصول هذا الخليفة -العالم المحدث النحوي اللغوي راعي العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والأنساب[٢٩]- وصلت حركة نقل المعرفة إلى اللغة العربية إلى المنعطف الثالث الهام في تاريخها المجيد.

وهناك رواية قصيرة أوردتها كتب التراث[٣٠]، تغني دلالتها عن مجلدات للتعريف بشخصية المأمون:

كتب ابن النديم:" أن المأمون رأى في منامه كأن رجلا أبيض اللون، مشرباً حمرة، واسع الجبهة، مقرون الحاجب، أجلع الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل، جالس على سريره. قال المأمون: وكأني بين يديه قد ملئت له هيبة، فقلت: من أنت؟ قال: أنا أرسطاليس فسررت به وقلت: أيها الحكيم أسألك؟ قال: سل، قلت ما الحُسن؟ قال ما حسن في العقل، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن في الشرع، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن عند الجمهور، قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم لا ثم.

وفي رواية أخرى: قلت: زدني، قال: ما نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد"[٣١].

ولنا أن نقبل هذه الرواية أو نرفضها، ولكن في كلتا الحالتين لها دلالة: فإننا إن قبلناها، ونسبنا روايتها إلى المأمون، فلها دلالة قوية على شخصية ونفسية المأمون، فإن اعتبرنا أن الحلم نشاط ذهني في أثناء النوم في شكل صور بصرية

يكون مضمونه ذا دلالة عن مكبوتات ومشاغل اللاشعور، ولو طبقنا هذا على حلم المأمون لوجدنا كيف أن البحث عن المعرفة وأمور تحكيم العقل وتدبير الفكر شغلت حيزاً كبيراً من فكر المأمون بحيث ترسبت في اللاشعور لديه.

وإن لم نقبلها وافترضنا أنها ألصقت بالمأمون: فلها دلالة على صورة المأمون لدى معاصريه ومؤرخيه بكونه شخصية تبحث عن المعرفة وتحكّم العقل، خاصة إذا ما عرف عن ميله إلى المعتزلة أهل العقل من المتكلمين الذين تطرفوا فتطرف معهم.

وراسل المأمون ملك الروم بعد أن هزمه، طالباً منه أن يرسل إليه ما لديه من كتب العلوم القديمة، وبعد تمنع وافق ملك الروم، فأرسل المأمون بعثة علمية من بين أعضائها الحجاج بن مطر، وابن البطريق. وقيل: إن يوحنا بن ماسويه كان معهم وقام هؤلاء باختيار مجموعة ضخمة من الكتب في شتى مجالات العلوم في الفلسفة والهندسة والموسيقى والارتماطيقي (الحساب) والطب، وعادوا بها إلى بغداد فكلفهم المأمون وغيرهم بنقلها إلى العربية[٣٢].

وبعد قرار خالد بن يزيد بن معاوية ببدء النقل، وقرار أبي جعفر المنصور بتبني الدولة ورعايتها لحركة النقل، اتخذ المأمون القرار الثالث الهام في تاريخ الحركة، ليضعها في منعطف تاريخي جديد، إنه قرار إنشاء بيت الحكمة في بغداد. إنه ليس بيتاً عادياً كما يمكن أن يوحي اللفظ، بل هو مركز علمي أكاديمي يحوي مكتبة ضخمة ومدرسة لتخريج النَقَلة، ومعمل ترجمة، انه ليس فقط مكان فيه بعض المترجمين، ينقلون بعض الكتب، بل معمل كبير يحتوي على عدد كبير

من النَّقَلة، البعض ينقل من اليونانية إلى السريانية، والبعض من السريانية إلى العربية، وآخرون من اليونانية رأساً إلى العربية، وآخرون من الفارسية، وآخرون من الهندية، والبعض يصحح ما كتب وآخرون يبحثون عن كتب مجهولة فيسافرون بحثاً عنها، والبعض يراسل ملوك الدول الأجنبية بحثاً عن كتاب أو مقالة. والكل يجلس ويناقش ويصنف، أشخاص من مختلف الأصول والمذاهب اجتمعوا تحت سقف واحد، وحدتهم دولة الإسلام غايتهم نقل المعارف الإنسانية إلى لغة القرآن، فحفظوا هذه المعارف من الإهمال والضياع للإنسانية جمعاء.

حنين بن إسحاق:

إلى جانب شخصية خالد بن يزيد بن معاوية، وشخصية أبي جعفر المنصور، وشخصية المأمون العباسي، والتي كانت شخصية كل واحد منهم نقطة إشعاع وتحول في تاريخ حركة النقل بدعمها وتبنيها لهذه الحركة ظهرت شخصية عربية رابعة كان لها دور رئيس في تطور حركة النقل لا يقل عن دور الشخصيات السابقة. وإن كانت الشخصيات السابقة دعمت الحركة في مراحل مختلفة، فإن هذه الشخصية قامت بنقلة نوعية للنقل والترجمة نفسها بعد أن طورت منهجية علمية للنقل، وألغت ما يعرف بالترجمة الحرفية (كلمة بكلمة)، وأثبتت ما يسمى بالترجمة بالطريقة المعنوية التي تركز على نقل معنى النص، وهذه الطريقة تطلب من الناقل أن يكون متمكناً من اللغتين؛ الناقل منها والمنقول إليها، وهذا ما توفر لشخصيتنا هذه، بل كانت متمكنة من أربع لغات: العربية، واليونانية، والسريانية والفارسية.

إنها شخصية حنين بن إسحاق العبادي، هذا الذي مرت معنا قصته مع أحد الخلفاء العباسيين [٣٥] حينما طلب منه سمًّا ليقتل به أحد الأشخاص (على سبيل الاختبار لحنين)، هذا الفتى العربي العبادي القادم من صحراء الحيرة، كان فصيحاً لسناً بارعاً شاعراً، أقام فترة في البصرة حيث تبحر في العربية، ثم انتقل إلى بغداد وكان طموحاً لا يريد أن يكتفي بالعمل في التجارة والصيرفة كما هي عادة أهل الحيرة، بل أراد أن يصبح طبيباً، فالتحق بأشهر طبيب في ذلك الزمن وأسلطهم لساناً بيوحنا بن ماسويه، وكعادة العرب كان حنيناً كثير السؤال، وكعادة أهل جنديسابور وخاصة متطببوها ضيقي الصدر ينحرفون عن أهل الحيرة ويكرهون أن يدخل في صناعتهم أهل التجار.

يوماً سأل الشاب الطموح الذكي أستاذه سؤالاً محرجاً وألح عليه بالسؤال فغضب الأستاذ وأهانه وأهان أهله قائلاً: "ما لأهل الحيرة ولتعلم صناعة الطب! صر إلى فلان قرابتك حتى يهب لك خمسين درهماً، تشتري منها قفافاً صغاراً بدرهم، وزرنيخاً بثلاث دراهم، واشتر بالباقي فلوساً كوفية وقادسية، وزرنيخ القادسية في تلك القفاف، واقعد على الطريق، وصح الفلوس الجياد للصدقة والنفقة. وبع الفلوس فإنه أعود عليك من هذه الصناعة"[٣٧].

ويطرده من منزله شر طردة، ويخرج حنين ذليلاً مكروباً، ولكن نفسه الأبيّة تأبى الهزيمة؛ فيغيب سنيناً متنقلاً في آسيا الصغرى وبلاد الروم تعلم فيها اليونانية وأتقنها لدرجة أنه حفظ إلياذة هوميروس[٣٨] بالإضافة إلى الفارسية والسريانية التي يعرفها منذ صغره، والعربية لغة قومه، ثم يعود ويتصل بأحد أكبر أطباء عصره وهو جبرائيل بن بختيشوع الذي يقول عنه لأحدهم: "لا

تستكثرن ما ترى من تبجيلي هذا الفتى، فوالله لئن مد له من العمر ليفضحن سرجس"[٣٩]. وسرجس هذا هو الذي مر ذكره وعرف بنقلة كناش أهدن القس. ويصل صيته إلى أستاذه السابق الذي طرده، وفي البدء يتردد في تصديق أن هذه الترجمات تمت من قبل هذا العبادي، ثم يعترف به ويتقرب، بل ويحسن إليه. ويصل صيته أيضاً إلى الخليفة المأمون، فيثق به ويعينه مسؤولاً عن بيت الحكمة.

ويسافر حنين كثيراً بحثاً عن الكتب ليحضرها ويقوم هو أو تلاميذه بنقلها، ولا يخرج كتاب من بيت الحكمة إلا بعد أن يراجعه بنفسه، بل إن كتبا قام بنقلها وهو في العشرين أعاد مراجعتها وكتابتها وهو في الأربعين[٤٠] إنه يبحث دائماً عن الجودة في إخراجه للكتب المنقولة، يقول هو عن نفسه بثقة العالِم بنفسه الرافض للتواضع الكاذب أمام مؤامرات أعدائه وحساده: "ولكنهم لما رأوني فوقهم، وعالياً عليهم بالعلم والعمل، ونقلي إليهم العلوم الفاخرة من اللغات التي لا يحسنونها، ولا يهتدون إليها، ولا يعرفون شيئاً منها، في نهاية ما يكون من حسن العبارة والفصاحة، ولا نقص فيها ولا زلل، ولا ميل لأحد من الملل، ولا استغلاق ولا لحن، باعتبار أصحاب البلاغة من العرب الذين يقومون بمعرفة وجوه النحو والغريب، ولا يعثرون على سيئة ولا مشكلة ولا معنى، لكن بأعذب ما يكون عن اللفظ، وأقربه إلى الفهم، يسمعه من ليس صناعته الطب ولا يعرف شيئاً من طرقات الفلسفة ولا من ينتحل ديانة النصرانية، وكل الملل، فيستحسنه ويعرف قدره... إذ كانوا يفضلون هذا النقل على نقل كل من قبلي" [٤١].

وقارن أحد القدماء بينه وبين بعض من سبقوه من النقلة فكتب:

"ووجدت بعض الكتب الستة عشر لجالينوس، وقد نقلها من الرومية إلى السريانية سرجس المتطبب. (يقصد ماسرجويه الذي مر ذكره) ونقلها من السريانية إلى العربية موسى بن خالد الترجمان. فلما طالعتها وتأملت ألفاظها تبين لي بين نقلها وبين الستة عشر التي هي نقل حنين تباين كثير وتفاوت بيِّن. وأين الألكن من البليغ، والثرى من الثريا؟"[٤٢]. واختاره الخليفة المتوكل طبيباً خاصاً له، وكثر حساده وخصومه من أهل ملته فتآمروا عليه واتهموه في دينه؛ مما أثار غضب الخليفة عليه، فمات غماً. وفقدت الإنسانية أحد أعظم النقلة في تاريخها.

أفضنا في الكتابة عن حنين لنعطي مثلاً لتطور حركة النقل فهو تطويل بغرض الاختصار حيث إنه ليس غرضنا في هذا الكتاب تأريخ حركة النقل فهذه تحتاج إلى مجلدات، ولكننا أردنا أن نعطي صورة سريعة عن هذه الفترة، فمثلاً عدد الكتب التي نقلها حنين بن إسحاق إلى السريانية والعربية ٢٦٠ كتاباً ووضع نحو ١١٥ تأليفاً [٤٣]، هذا ما قام به ناقل واحد.

وسنسرد هنا أسماء عدد من النقلة كما أوردها ابن أبي أصيبعة، وهذا العدد أقل بكثير من النقلة الذين أوردهم ابن النديم في فهرسه، ولنا أن نتصور بعد ذلك حجم هذه الحركة وحجم الكتب التي تم نقلها:

أسماء بعض أشهر النقلة:

جورجس: أحضره أبو جعفر المنصور من جنديسابور، وقام بنقل عدد من الكتب له، وهو رأس عائلة خدمت الطب لمدة تزيد عن مئتين وخمسين عاماً.

حنين بن إسحاق: مر ذكره.

إسحاق بن حنين: ابن حنين وكان لا يقل قدرة عن أبيه.

حبيش الأعسم : ابن أخت حنين وتلميذه.

عيسى بن يحيى بن إبراهيم: تلميذ حنين.

قسطا بن لوقا البعلبكي: أحد عظماء النقلة.

أيوب المعروف بالأبرش، شهدي الكرخي، الحجاج بن مطر، زروبا بن مانحوه، الناعمي الحمصي، هلال بن أبي هلال الحمصي، فثيون الترجمان، بسيل المطران، إصطفن بن بسيل، موسى بن خالد، أسطاث، البطريق وابنه يحيى، أبوعثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي وغيرهم كثيرون.

كما أورد ابن النديم أسماء النقلة من الفارسي إلى العربي وأيضاً أسماء نقلة الهند والنبط [٤٤] أمثال:

منكة الهندي: نقل من اللغة الهندية إلى العربية، ونقل كتاب "سسرد"، عشر مقالات، كتاب أسماء عقاقير الهند.

ابن دهن الهندي: وكان إليه بيمارستان البرامكة، نقل إلى العربي من اللسان الهندي كتاب "أستانكر الجامع" وكذلك كتاب "سند ستاق".

وهناك ناقل ومترجم كبير لم يضعه ابن النديم ضمن النقلة، بل وضعه ضمن الفلاسفة الطبيعيين. وأيضاً لم يضعه ابن أبي أصيبعة ضمن النقلة، بل ضمن الأطباء، وإن أورد هذا النص نقلاً عن أبي معشر في كتاب "المذاكرات" لشاذان الذي يظهر منه أن الكندي كان من كبار المترجمين: " حذاق التراجمة في الإسلام أربعة: حنين بن إسحاق، ويعقوب بن إسحاق الكندي، وثابت بن قرة الحراني، وعمر بن الفرخان الطبري"[٤٥].

سمات الطب العربي في هذه الفترة

إن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا: كيف كان الطب في هذه الفترة؟ وإذا تذكرنا ما ورد في هذا الكتاب مراراً بأن الطب حاجة إنسانية وضرورة لازمة تتطور بتطور المجتمع الذي تخدمه، بل يعتبر الطب وتطوره أحد مؤشرات التطور لمجتمع ما.

فإذا وجدنا في مجتمع ما طباً متطوراً، دل ذلك على تطور وتقدم هذا المجتمع، والعكس صحيح.

في بدايات الدولة العباسية حصلت طفرة اجتماعية كبيرة تميزت بتدفق الثروة مزامناً لتدفق كبير للمعرفة الإنسانية، عن طريق النقل والترجمة، وعن طريق الاحتكاك المباشر بين الشعوب المختلفة الأصول لهذه الدولة المترامية الأطراف. الترجمة نقلت المعرفة المخبأة في الكتب، والاحتكاك نقل المعرفة الآنية والخبرة الخاصة المخبأة في العقول؛ مما أدى إلى ظهور مناخ فكري ثري توفرت له الحرية اللازمة، فأثّر إيجابياً على جميع العلوم والصناعات. وخاصة الطب. ونجد أهم سماته في هذه الفترة:

- تم نقل معظم كتب الطب اليوناني الأبقراطي إلى العربية، وخاصة الأساسيات من كتب أبقراط، وكتب جالينوس الستة عشر اللازمة لأي طالب طب في ذلك العصر، وبذلك توافر الأساس النظري للدارسين، وأصبح متاحاً لأكبر

عدد ممكن من الأفراد الراغبين بدراسة الطب بلغتهم أي بالعربية. مما أدى إلى ازدياد عدد الأطباء في هذا العصر وفي العصور التالية، حتى بلغ عددهم أيام الخليفة المقتدر ما يزيد عن ثمانمئة طبيب ونيف وستين طبيباً فقط في بغداد[٤٦]، في وقت لم يكن في كل مقاطعات الراين في ألمانيا طبيباً واحداً[٤٧].

- كان كثير من النقلة أطباء، بعضهم مارس المهنة بصفة يومية، وبعضهم كان ناقلاً أكثر من كونه ممارساً. على العموم غلب على أطباء هذه المرحلة التنظير بحيث أنهم كانوا نظريين أكثر من كونهم عمليين، وكانوا تقليديين متمسكين بما جاء به اليونان لا يخالفونهم في الرأي أكثر من كونهم مبدعين.

- إن كان هذا العصر قد تميز بكثرة النقل والترجمة فإنه تميز أيضاً بقلة التأليف الإبداعي، فنجد مثلاً أن حنين بن إسحاق قد قام بنقل مئتين وستين كتاباً وقام بتأليف مئة وستين كتاباً لم يضف فيها أي جديد عما جاء في كتب الإغريق. كتب الدكتور عمر فروخ يصف مؤلفات هذه المرحلة:

"فإننا لن نعالج إنتاجهم إلا على أنه "نقل" فقط، لا تأليف. وسبب ذلك أمران: أولهما: إنه لم يكن لهم آراء تستحق الدرس، فإن كل ما ذكروه في الكتب التي ادعوا أنهم وضعوها إنما هو متفرع من الكتب اليونانية التي اختصروها أو شرحوها أو نقلوها مع شيء كثير من الغموض. وأما ثاني السببين: فهو أن هؤلاء جميعاً قد قاموا بأعمالهم تكسباً للمال. إن كتبهم هذه لم تمثل نزعاتهم الفكرية"[٤٨].

ولكن علينا أن لا نظلمهم فإن العمل الذي قاموا به في حركة النقل لكافٍ في أن يضعهم مع العظماء، فالظروف الموضوعية في ذلك العصر لم تكن قد نضجت بعد، وهذا ما تم لأطباء المرحلة التالية التي سنتكلم عنها في الفصل المقبل.

- كان بعض الأطباء الذين مارسوا الطب في هذه الفترة أمّيون لا يقرؤون حرفاً واحداً بلسان من الألسن، وأخذوا الطب بالملاحظة والممارسة بل إن أحدهم وصل إلى منزلة عالية في خدمة قصور الخلفاء، مثل: ماسويه أبو يوحنا[٤٩]، وهو ما لم يمكن أن يحدث في العصر التالي، حينما فرضت الامتحانات على الأطباء.

- أكثرية الأطباء الذين عملوا في قصور الخلفاء في هذه الفترة كانوا من خريجي بيمارستان جنديسابور (مدرسة جنديسابور الطبية)، وكانت أكثريتهم من السريان.

- تميزت هذه المرحلة بوجود أطباء تخرجوا من مدارس طبية أخرى غير اليونانية، عملوا في قصور الخلفاء، مثل: منكة الهندي وغيره. وهؤلاء أثروا التيار العام للطب بروافد أخرى.

- أصبح الطب يجلب الثروة والجاه والنفوذ للأطباء، وخاصة الذين عملوا في قصور الخلفاء، فحقق أحدهم وهو جبرائيل بن بختيشوع ثروة طائلة تجاوزت الملايين من الدراهم أثناء فترة خدمته[٤٩]. ووصل آخر وهو سلمويه بن بنان من النفوذ أنه كان يرد إلى الدواوين توقيعات المعتصم في السجلات وغيرها بخطه،

وتولى أخوه خزن بيوت الأموال في البلاد[٥٠]. مما جعل الثروة والجاه هدف كثير من الأطباء السريان، وهو ما اختفى في العصر التالي حين ترسخت القيم الإسلامية وقيم الطب، فنجد أحد أعظم أطباء الإنسانية أبي بكر الرازي يموت فقيراً معدماً.

- ظهرت بعض المحاولات للخروج عن النمط النظري للطب الإغريقي التقليدي، والتوجه للنمط التجريبي العملي، مثل ما فعل يوحنا بن ماسويه بالقرد الذي أهدي إلى الخليفة المعتصم، والذي بدوره أعطاه إلى يوحنا بن ماسويه ليزوجه؛ فشرّحه بدلاً من ذلك، وليضع كتاباً على وضع جالينوس في التشريح، وقال: "فسيعلم أمير المؤمنين أني سأضع له كتاباً لم يوضع في الإسلام مثله" فظهر له منه كتاب حسن، استحسنه أعداؤه فضلاً عن أصدقائه.

فكأنه بذلك وضع حجر الأساس للطب العربي التجريبي، الذي وصل قمته في عصر النضج والإبداع.

- في هذه الفترة دخلت الأدوية المركبة في استخدامات الطب العربي، فقبلها لم يعرف العرب في جزيرتهم إلا الأدوية المفردة. وبترجمة كتاب ديوسقريدس عن النباتات والحشائش زادت معرفتهم بمصادر الأدوية، وإن كان في هذا العصر لم تنفصل بعد مهنة الصيدلة عن مهنة الطب، وكان لا يزال لدينا الطبيب الصيدلاني الذي يقوم بالكشف ويشخص الداء ويصف الدواء ويحضره ويصرفه للمريض.

- الممارسة الطبية التي مورست في هذه الفترة كانت استمراراً للمدرسة الطبية اليونانية التي تقوم على النظرية الأبقراطية (نظرية العناصر الأربعة، والأخلاط الأربعة، والطبائع الأربعة)، لا يحيدون عن قوله في أن الجسد يعالج على خمسة أضرب: ما في الرأس بالغرغرة، وما في المعدة بالقيء، وما في البدن بإسهال البطن، وما بين الجلدين بالعرق، وما في العمق وداخل العروق بإرسال الدم [٥٢]. وهذا بحد ذاته كان تقدماً في الطب الطبائعي عن الطب الذي ساد في المنطقة لعدة قرون إذ خلصه من الشوائب والجهل الذي لحق بالطب الأبقراطي. وكاليونان القدماء عالج أطباء هذه الفترة أكثر الأمراض بالأدوية الحارة، وهو ما تم تبديله في مرحلة النضج والإبداع.

كما أن معظم التقدم الذي حصل في هذه الفترة كان في مجال الطب الطبائعي، أما مجالات الطب الأخرى كالجراحة والكحالة فإنها لم تخضع إلى التغيير والتطوير بعد، والذي حدث كان في العصر التالي عندما خضعت هذه المجالات لثورة التطوير.

- في هذا العصر أنشئ أول بيمارستان عام (مستشفى) في الإسلام، على نمط بيمارستان جنديسابور، مع قدر من التوسع والتطوير، أنشأه الخليفة هارون الرشيد، فكان نقطة تحول في تاريخ الطب العربي. فإذا كانت حركة النقل أوجدت الأساس النظري الضروري لدراسة الطب، فإن بناء البيمارستانات أوجد الأساس العملي الضروري لدراسة الطب على الطرق العلمية. وهذا من مميزات الطب العربي التي سنتناولها بالتفصيل فيما يأتي من فصول هذا الكتاب.

بعض الأطباء الذين برزوا في هذا العصر

- آل جورجيوس أو آل بختيشوع:

وهم عائلة سريانية خدمت الخلفاء والطب لمدة تزيد على قرنين ونصف، وحصدت من وراء ذلك الجاه والثروة. بدءًا من رأسها جورجيوس بن جبرائيل الذي كان رئيسًا لبيمارستان جنديسابور، فأحضره الخليفة أبو جعفر المنصور. مرورًا بأبنائه وأحفاده بختيشوع بن جورجيوس، جبرائيل بن بختيشوع، بختيشوع ابن جبرائيل، جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع، عبدالله بن جبرائيل الذي توفي عام ٤٥١هـ.

قال فثيون الترجمان عنهم: "إن جنس جورجس وولده كانوا أجمل أهل زمانهم بما خصهم الله به من شرف النفوس ونبل الهمم، ومن البر بالمعروف والأفضال والصدقات، وتفقد المرضى من الفقراء والمساكين، والأخذ بأيدي المنكوبين والمرهوقين على ما يتجاوز الحد في الصفة والشرح "[٥٣].

- عائلة ماسويه:

رأسها ماسويه أبو يوحنا: وهو الذي سبق ذكره الذي على الرغم من كونه أُميًا استطاع أن يصل إلى أعلى مناصب الطب في قصور الخلفاء.

وابنه يوحنا بن ماسويه: الذي اكتسب من صناعة الطب ألف ألف درهم[٥٤]

(مليون درهم). الذي مر ذكره عندما أهداه المعتصم قرداً لتزويجه، فقام بتشريحه.

وابنه الثاني ميخائيل بن ماسويه: كان تقليدياً لا يؤمن بالتطور ولا يعالج إلا بالوصفات القديمة التي وصفت قبل مئتين عام من تاريخه. كتب ابن أبي أصيبعة وصفاً له نقلاً عن يوسف بن إبراهيم:

"ولا يوافق أحداً من المتطببين على شيء أحدث من مئتي سنة، فلم يكن يستعمل الكتجبين، والورد المربى إلا بالعسل، ولا يستعمل الجلاب المتخذ بماء الورد ولا يتخذه إلا من الورد المسلوق بالماء الحار، ولا يتخذه بالسكر، ولا يستعمل شيئاً لم يستعمله الأوائل." (٥٥)

ونستفيد من هذا النص الهام أن جميع الوصفات المذكورة التي رفض استعمالها ميخائيل هي وصفات حديثة بالنسبة لذلك العصر، أي إنها نتاج للطب العربي.

- سلمويه بن بنان:

قد مر ذكره عندما ضربنا مثلاً عن النفوذ الذي وصل إليه بعض أطباء ذلك العصر. وله قول ينتقد فيه يوحنا بن ماسويه سنورده هنا لنبين نظريتهم ومنطقهم الطبي: "يوحنا آفة من آفات من اتخذ لنفسه واتكل على علاجه وكثرة حفظه للكتب وحسن شرحه ووصفه بما يتجهم به المكروه. ثم قال لي: أول الطب معرفة مقدار الداء حتى يعالج بمقدار ما يحتاج إليه من العلاج، ويوحنا أجهل

خلق الله بمقدار الداء والدواء جميعا، فإن زاول محرورا عالجه من الأدوية الباردة والأغذية المفرطة البرد، وبما يزيل عنه تلك الحرارة ويعقب معدته وبدنه برداً يحتاج له إلى المعالجة بالأدوية والأغذية الحارة، ثم يفعل في ذلك كفعله في العلة الأولى من الإفراط ليزول عنه البرد، ويعتل من حرارة مفرطة. فصاحبه أبداً عليل إما من حرارة وإما من برودة، والأبدان تضعف عن احتمال هذا التدبير، وإنما الغرض من اتخاذ الناس المتطببين لحفظ صحتهم في أيام الصحة ولخدمة طبائعهم في أيام العلة"[٥٦].

وهناك أيضاً عائلة الطيفوري، وجبرائيل كحال المأمون ويزيد بن زيد، وعيسى بن ماسه الذي له عدة كتب منها كتاب "الرؤيا " يخبر فيه بالسبب الذي امتنع به من معالجة الحوامل، وله "رسالة في استعمال الحمام". وهناك حنين بن إسحاق وقد مر ذكره، وابنه إسحاق، وتلميذه عيسى بن علي، صاحب كتاب المنافع التي تستفاد من أعضاء الحيوان. ومنهم أيضا: يعقوب بن إسحاق الكندي: فيلسوف العرب وطبيبهم وهو القائل: " وليتق الله تعالى المتطبب ولا يخاطر، فليس عن الأنفس عوض. وقال: العاقل يظن إنه فوق علمه علماً، فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة، والجاهل يظن أنه قد تناهى فتمقته النفوس لذلك"[٥٧] ومنكه الهندي، وغيرهم كثيرون.

هوامش الفصل الثالث من الباب الأول

١- زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣١٧-٣١٨.

٢- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١٩/٢.

٣- الكناش: الكتاب الجامع.

٤- ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣٥/٢.

٥- المصدر السابق نفسه ٢٥/٢.

٦- المصدر السابق نفسه ٢٨/٢.

٧- المصدر السابق نفسه ١٤٤/٢-١٤٥.

٨- ابن النديم: الفهرست ص ٣١٤، وأيضاً ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/٢-٥.

٩- ابن النديم: الفهرست، مصدر سابق، ص ٣٤٧.

١٠- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣٩/١.

١١- ابن النديم: الفهرست، مصدر سابق، ص ٣٥٨ وأيضاً ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١٢/٢.

١٢- عكاوي: الموجز في تاريخ الطب عند العرب ص ١٤٥.

١٣- فروخ: تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ص ٢٧١.

١٤- ماهر عبد القادر محمد: دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي ص ٤٢.

١٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤٦٤/٣.

١٦- الزركلي: الأعلام٣٠١/٢

١٧- ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢٢٤/٢.

١٨- ابن النديم: الفهرست، مصدر سابق، ص ٤٣٤.

١٩- ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء ص ٦١.

٢٠- ابن النديم: الفهرست، مصدر سابق، ص ٣٥٨.

٢١- عكاوي: الموجز في تاريخ الطب عند العرب ص ١٤٥.

٢٢- فروخ: تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ص ٢٧٢.

٢٣- ابن النديم: الفهرست، مصدر سابق، ٣٠٣.

٢٤- ماهر عبد القادر محمد: دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي، مصدر سابق، ص ١٠٢.

٢٥- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢/٣٧.

٢٦- ابن النديم: الفهرست، مصدر سابق، ٣٠١.

٢٧- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/١٧٥-١٧٧.

٢٨- المصدر السابق نفسه ٢/١٢٤.

٢٩- الزركلي: الأعلام ٤/١٤٢.

٣٠- أوردها ابن النديم، وابن القفطي، وابن أبي أصيبعة، وغيرهم.

٣١- ابن النديم: الفهرست، ص ٣٠١.

٣٢- المصدر السابق نفسه ص ٣٠١ وأيضاً ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مصدر سابق، ٢/١٤٣.

٣٣- زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، مصدر سابق، ص ٣٧٩.

٣٤- فروخ: تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، مصدر سابق، ص ٢٧٨.

٣٥- بعضهم نسبها إلى المأمون مثل المستشرق جاك ريسلر في كتابه الحضارة العربية صفحة ٢٠٧ والبعض الآخر نسبها إلى المتوكل مثل د. ماهر عبدالقادر محمد في كتابه دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي ص ١١٠.

٣٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢/١٣٩.

٣٧- المصدر السابق نفسه ٢/١٤٠.

٣٨- الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ٢/٢٨٧.

٣٩- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مصدر سابق، ٢/١٤١.

٤٠- ماهر عبد القادر محمد: دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي، مصدر سابق، ص ١٨٩-١٩٠.

٤١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء٢/١٥٠-١٥١.

٤٢- المصدر السابق نفسه ٢/١٤٦.

٤٣- الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ٢/٢٨٨.

٤٤- ابن النديم: الفهرست، مصدر سابق، ص ٣٠٣ و٣٦٤.

٤٥- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مصدر سابق، ٢/١٧٩.

٤٦- المصدر السابق نفسه ٢/٢٠٤.

٤٧- زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، مصدر سابق، ص٢٣٥.

٤٨- فروخ: تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، مصدر سابق، ص٢٧٤.

٤٩- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مصدر سابق، ٢/٥٨.

٥٠- المصدر السابق نفسه ٢/١٠٦.

٥١- المصدر السابق نفسه ٢/١٢٨-١٢٩.

٥٢- المصدر السابق نفسه ١/٥٠.

٥٣- المصدر السابق نفسه ٢/٥٨.

٥٤- المصدر السابق نفسه ٢/١٢٣.

٥٥- المصدر السابق نفسه ٢/١٣٧.

٥٦- المصدر السابق نفسه ٢/١١١.

٥٧- المصدر السابق نفسه ٢/١٨٢.

الفصل الرابع
شمس الطب العربي
(عصر النضج والإبداع)

تراكم المعارف الإنسانية:

قبيل انتهاء عصر الترجمة توفرت جل المعارف الطبية الإنسانية لدى الأمم والحضارات السابقة من صينية وفارسية وهندية وخاصة اليونانية باللغة العربية، لكل فرد موهوب طموح من أفراد هذا المجتمع النامي، وتراكمت المعارف الإنسانية وتجارب الشعوب في شتى العلوم والمجالات. وتسابق الخلفاء والأمراء والوزراء ورجال الدولة والأغنياء في اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات.

وازدهرت مهنة الوراقين والنساخين وسماسرة الكتب، وأصبح عدد المجلدات التي يملكها الشخص مقياساً لمدى ثرائه، فظهرت مكتبات خاصة تعدى عدد المجلدات فيها حاجز المئة ألف مجلد، فالوزير المهلبي ترك عند وفاته ١١٧٠٠٠ مجلد، وابن عباد كان يملك ٢٠٦٠٠٠ مجلد[٢]. والمكتبات التي تحتوي على أربعين ألف مجلد كانت تعتبر صغيرة مثل مكتبة النجف، بينما لم تحو أديرة الغرب في ذلك الزمن سوى اثني عشر كتابا ربطت بالسلاسل[٣]. وهذا ابن سينا يشترك في علاج سلطان بخارى نوح بن منصور، فيسمح له بدخول دار كتبه ومطالعة وقراءة ما فيها من كتب الطب. يصف ابن سينا الدار قائلا: "فأذن لي

فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة، في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض، في بيت منها كتب العربية والشعر، وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيت كتبُ علمٍ مفرد. فطالعت فهرست كتب الأوائل، وطلبت ما احتجت إليه منها، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط"[٤]. ومكتبة البيمارستان (المستشفى) المنصوري بالقاهرة لكبرها عمل بها ستة أمناء مكتبة[٥]. وبيت الحكمة في القاهرة في عصر العزيز احتوى على مليون وستمئة ألف مجلد[٦]، وفي قاعاته ألقيت المحاضرات من قبل الفقهاء والأدباء والفلكيين والنحويين والأطباء[٧]. وقس على ذلك مكتبات بغداد ودمشق وقرطبة وبخارى وكل حاضرة إسلامية، وبذلك توفرت المعرفة لكل طالب لها باحث عنها بسهولة ويسر.

بلورة المنهج العلمي:

وهنا يتبادر سؤال... ماذا فعل أجدادنا بهذا الكم التراكمي الهائل من المعرفة الإنسانية؟ هل احتفظوا به في المجلدات لتزيين دورهم؟ وهل احتفظوا بهذه المجلدات في خزائن الكتب وصناديقها للمباهاة والتفاخر؟ أم حفظوها في عقولهم بجمود حفظها في الخزائن؟ أم أدخلوها مختبرات عقولهم للفحص والتحليل؟ هل قبلوا ما جاء فيها كمسلمات قبول الطفل لمسلمات أبيه؟ أم هل رفضوها رفض الخارجي المتعصب لكل ما يخالف معتقده؟

في البدء، وفي عصر الترجمة، وقبل تبلور المنهج العلمي لدى أطباء وعلماء الحضارة العربية الإسلامية، تقبلوا هذه المعارف كمسلمات وتعاملوا معها على هذا الأساس، وطبقوا ما جاء فيها في ممارساتهم العلاجية بحذافيرها، حتى في

تآليفهم الطبية في ذلك العصر لم يخرجوا في النقل عما جاء في كتب الأقدمين من إغريق وغيرهم. ولو توقفت الحضارة الإسلامية عند هذا الحد، لكان لهؤلاء فضل كبير لا ينكر، ألا وهو الحفاظ على تراث المعرفة الإنسانية التي ضاعت أصولها فيما بعد. لكنهم لم يكتفوا بذلك فقط، فما هي إلا عقود عدة حتى طوروا لهم منهجية علمية أخضعوا لها جميع المعارف التي وصلتهم من القدماء. وإذا تحدثنا في الفصل السابق عن أكبر حركة نقل للمعارف في التاريخ؛ فإنه في هذا العصر قامت أكبر حركة عرفت إلى ذلك العهد لإعادة صياغة وبناء المعارف بعد إخضاعها للتجربة والاختبار، وما ثبت صلاحه أخذ، وما ثبت خطله رفض، وما بينهما بقي مكاناً للخلاف.

ولنضربَ مثلاً على طريقة تعاملهم مع المعرفة نورد هنا نصاً على لسان عالمنا الكبير ابن سينا، أورده ابن أبي أصيبعة في تحفته عيون الأنباء في طبقات الأطباء. وهذا النص على طوله فإنه يغني عن التطويل في شرح كيفية تعامل علماء العرب مع المعرفة الإنسانية وتطويرهم لمنهجهم العلمي.

يروي ابن سينا عن نفسه: "وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب، وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضي مني العجب. وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين ويعد من الإسماعيلية. وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم، وكذلك أخي. وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي، وابتدؤوا يدعونني أيضاً إليه، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة

وحساب الهند، وأخذ أبي يوجهني إلى رجل كان يبيع البقل، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه، ثم جاء إلى بخارى أبو عبدالله النائلي، وكان يدعى المتفلسف، وأنزله أبي دارنا وجاء تعلمي منه، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد، وكنت من أجود السالكين. وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذي جرت عادة القوم به.

ثم ابتدأت بكتاب إيساغوجي على النائلي. ولما ذكر لي أن حد الجنس هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع في جواب ما هو، أخذت في تحقيق هذا الحد بما لم يسمع مثله، وتعجب مني كل العجب، وحذر والدي من شغلي بغير العلم. وكان أي مسألة قالها لي أتصورها خيراً منه، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه، وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة. ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق. وكذلك كتاب إقليدس قرأت عليه من أوله خمسة أشكال أو ستة، ثم توليت بنفسي حل بقية الكتاب بأسْره. ثم انتقلت إلى المجسطي، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية قال لي النائلي: تولَّ قراءتها وحلها بنفسك، ثم اعرضها عليّ لأُبيّن لك صوابه من خطئه، وما كان الرجل يقوم بالكتاب. وأخذت أحل ذلك الكتاب فكم من شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضتُه عليه وفهمتُه إياه، ثم فارقني النائلي متوجهاً إلى كركانج، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح، من الطبيعي والإلهي، وصارت أبواب العلم تفتح علي.

ثم رغبت في علم الطب، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه، وعلم الطب ليس

من العلوم الصعبة. فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة، حتى بدأ فضلاء الطب يقرؤون عليّ علم الطب.

(انتبه عزيزي القارئ إلى الجملة التالية فهي على بساطتها تدلنا على أهمية الخبرة العملية في الطب العربي وما ميزه عن طب اليونان النظري وغيرهم).

وتعهدت المرضى فانفتح عليّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف، وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه، وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة. ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفاً، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة، وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها، ولا اشتغلت النهار بغيره. (وفيما يأتي يوضح لنا منهجيته في البحث): وجمعت بين يديّ ظهوراً، فكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية، ورتبتها في تلك الظهور، ثم نظرت فيما عساها تنتج، وراعيت شروط مقدماته حتى تحقق لي حقيقة الحق في تلك المسألة، وكلما كنت أتحيّر في مسألة -ولم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس- ترددت إلى الجامع، وصلّيت وابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فتح لي المنغلق وتيسر المتعسر.... وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني..... ثم عدلت إلى الإلهي، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة، فما كنت أفهم ما فيه، والتبس عليّ غرض واضعه، حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظاً. وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به، وأيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه. وإذا أنا في يوم من الأيام

حضرت وقت العصر في الوراقين، وبيد دلال مجلد ينادي عليه، فعرضه عليّ فرددته رد متبرم، معتقد أن لا فائدة من هذا العلم. فقال لي: اشتر مني هذا فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم، وصاحبه محتاج إلى ثمنه، واشتريته، فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، ورجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته، فانفتح عليّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لي محفوظا على ظهر القلب. وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يومه بشيء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى "[٨].

هذا النص يغني عن أي تعليق ويجيب على كثير من الأسئلة التي سئلت في بداية هذا الفصل. ولكن قد يتبادر إلى الذهن أن هذه المنهجية ما هي إلا منهج فردي لابن سينا وليس تياراً عاماً. لنرى الآن ما يقوله نفر آخر من علمائنا الأجلاء في هذا المجال، نورده للدلالة على أن هذه المنهجية كانت تياراً عاماً وليس منحاً فردياً.

قال ابن رشد: "يجب علينا إذا ألقينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات، واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان، أن ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم"[٩].

ففيلسوفنا وطبيبنا الكبير يطالب بإخضاع تراث المعرفة الإنسانية لشروط برهانية معينة. وأن نقبل من هذه المعارف فقط ما أثبت البرهان صحته.

ويأتي الطبيب والشاعر الأندلسي ابن الخطيب ليذهب إلى أبعد من ذلك حيث يقول: "مبدئيا يجب أن يكون كل برهان متوارثاً، قابلاً للتعديل، إذا ما اتضح لحواسنا عكسه "[١٠].

وهكذا يقترب ابن الخطيب من منهج البحث العلمي الحديث من حيث اعتماد الحواس كأداة من أدوات الحصول على المعرفة، وإثبات صحة معلومة ما، وبذلك يقر بمسلمة صحة الإدراك أحد المسلمات الخاصة بالطبيعة البشرية التي تشكل أحد الافتراضات التي تقوم عليها الطريقة العلمية الحديثة في البحث العلمي.

ونستطيع أن نرى ذلك بشكل أوضح لدى طبيبنا الكبير موفق الدين عبد اللطيف البغدادي أحد معاصري السلطان العظيم صلاح الدين الأيوبي حيث قال: " لقد سافرنا إلى الخارج، ورأينا آلافاً من العظام والأرجل، ففحصناها فحصاً دقيقاً، وحصلنا على معارف جمة من هذه الدراسة، معارف لم نكن لنحصل عليها بين دفات الكتب. وقد علّمنا جالينوس بأن الفك الأسفل مؤلّف من قطعتين من العظم يجمع بينهما تدريز، ولكننا فحصنا أكثر من ألفين منها، ولم نجد فكاً سفلياً واحداً له عظمتان، إنه عظمة واحدة دون أي تدريز. وأنظر هناك إلى مستدق الظهر، إنه مؤلف من قطعة واحدة من العظم، وليس من ست كما قال جالينوس. ونحن نؤمن بأن البراهين التي تقدمها لنا الحواس أصدق بكثير، وأكثر إقناعا من البراهين المستندة إلى بعض أساطين العلم"[١١].

ولنرَ ما يقوله أول الأطباء السريريين قاطبة، وأحد أعظم الأطباء على مر العصور في بلورته لهذه المنهجية، شيخنا أبوبكر الرازي: "ما اجتمع الأطباء عليه وشهد عليه القياس وعضدته التجربة فليكن أمامك وبالضد"[١٢].

ويأتي أبو الكيمياء ومؤسسها العلمي جابر بن حيان ليقولها قاطعة حادة كالسيف:

"المعرفة الصحيحة لا تأتي إلا بالتجربة"[١٣].

مما تقدم يظهر بوضوح منهج البحث العلمي لدى علماء الحضارة العربية الإسلامية في الطب وغيره من العلوم. والذي يقوم على:

١- الحصول على المعرفة بالملاحظة والمشاهدة.

٢- إثبات صحتها بالاختبار والتجربة.

منهج أجدادنا في التجربة:

واستكمالاً لهذه المنهجية العملية لدى علماء الحضارة العربية الإسلامية لابد أن نتحدث قليلاً عن موقفهم ومفهومهم من التجربة وهل تركوها بلا ضوابط وبلا شروط؟ أي هل مارسوا التجربة بلا منهجية، أم كانت لهم منهجية واضحة في ذلك؟

كتب ابن سينا في قانونه في المقالة الثانية من الكتاب الثاني "في تعرف قوى أمزجة الأدوية بالتجربة":

"الأدوية تتعرف قواها من طريقين: أحدهما: طريق القياس، والآخر: طريق التجربة. ولنقدم الكلام في التجربة فنقول: إن التجربة إنما تهدى إلى معرفة قوة الدواء بالثقة بعد مراعاة شرائط"[١٤].

ويضع ابن سينا ستة شروط لذلك لا مجال لمناقشتها هنا، ولكن نستطيع أن نقول: إنها كلها تندرج في المناهج الثلاثة التي تشكل أصل التجربة العلمية، ألا وهي المطابقة والخلاف والتغييرات المتزامنة. وهذه المناهج الثلاثة تعتبر في أصل العلوم الحديثة[١٥].

وسنضرب هنا ثلاثة أمثلة على استعمال هذا المنهج العلمي من قبل أجدادنا الأفاضل.

فعندما قابل ابن سينا إشكالية: أيهما أيبس، العظم أم الشعر؟ قام بالتجربة التالية:

"إذا أخذنا قدْرين متساويين في الوزن من العظم والشعر، فقطرناهما في القرع[١٦] والأنبيق سال من العظم ماء ودهن أكثر. وبقي له ثقل أكثر. فالعظم إذاً أرطب من الشعر"[١٧].

أتعجب عزيزي القارئ وتظن أنك تقرأ تجربة أجريت في العصر الحديث؟ سنزيد عجبك بأن الزمن الذي يفصلنا عن ابن سينا يزيد على ألف عام!

والمثل الثاني عن أبي بكر الرازي عندما أراد أن يعرف ضرر الزئبق الصافي على الأحياء، فقام بإعطاء قردٍ كان في بيته جرعة منه، فأخذ القرد يحرك نفسه

يميناً ويساراً ويضغط على أسنانه ويدفع يده في خاصرته من شدة الألم. ولكن القرد لم يمت. فاستنتج الرازي خطأ، أن الزئبق الصافي غير ضار جدا بالجسم. وهو إن كان يسبب آلاماً حادةً في القسم الأسفل من الجسم وفي الأمعاء، إلا أنه يترك الجسم كما دخله وخاصة عندما يبقى الشخص في حركة دائمة[١٨]. وإن أخطأ الرازي هنا في الاستنتاج فإن الرواية تدل على منهجه العلمي الذي لا يختلف كثيراً عن المنهج العلمي الحديث. وخاصة إذا ما عرف أنه لم يكن يستعمل عقارا جديدا للبشر قبل تجربته على الحيوانات. وها هو ينصح زملاءه الأطباء نصيحة صالحة لكل عصر ومكان قائلاً:

"العمر يقصر على الوقوف على فعل كل نبات في الأرض، فعليك بالأشهر مما أجمع عليه، ودع الشاذ، واقتصر على ما جربت"[١٩].

والمثل الثالث: نضربه عن ابن سينا أيضاً، حيث كان أول من لجأ إلى التجربة النفسية، حين واجهته إشكالية إثبات لا مادية النفس ومباينتها للجسم. فقد برهن عليها القدماء بالمنطق، وأراد هو أن يبرهن عليها بالتجربة إذ قال:

"لنتصور إنساناً خلق محجوب البصر لا يرى من إهابه شيئاً، متباعد الأطراف، لا يلمس جزءٌ من جسمه جزءا آخر، يهوي في خلاء لا يصدمه فيه قوام الهواء حتى لا يحس ولا يسمع، أليس يغفل مثل هذا الإنسان عن جملة بدنه؟ أليس يشعر بشيء واحد فقط هو إنيته (نفسه)؟ فالنفس إذن موجودة وجوداً غير بدني"[٢٠].

وفي العصر الحديث أتى ديكارت بمثل هذه التجربة البرهانية، مما جعل بعض الباحثين يعتقدون بأنه ربما اطّلع ديكارت على آراء ابن سينا، وخاصة أن فورلاني قد أثبت أن النصوص المتعلقة بهذا الموضوع قد ترجمت إلى اللاتينية[٢١].

منهجهم في صياغة المعارف المكتسبة:

بهذه المنهجية تصدى علماؤنا للمعرفة القديمة المنقولة إليهم بحثاً وتمحيصاً. وأعادوا صياغة وبناء هرم المعرفة التراكمي، فأضافوا إليه معرفة حديثة توصلوا هم إليها، وبرهنوا على صحتها بمنهجهم العلمي وبقدراتهم الذاتية المتوافرة في ذلك الزمن، ودونوا هذا الكم الهائل من المعرفة على صفحات الورق، وبدأت تظهر تباعاً الكتب والمقالات والرسائل الطبية الأصيلة الإبداعية التي يحق عليها قول "فون ناتسهايم": "لقد برع العرب في علم الشفاء إلى حد اعتقد المرء فيه أنهم مؤسسو هذا الفن. وقد كان بإمكانهم أن يدعوا ذلك بسهولة لو أنهم لم يكثروا من إيراد الأسماء والكلمات اللاتينية واليونانية، ولهذا فإن كتب ابن سينا والرازي وابن رشد قد استقبلت بالثقة نفسها التي استقبلت بها كتب أبقراط وجالينوس ونالت ثقة كبيرة، حتى أن كل من حاول التطبيب بدون الاستناد عليها كان يتهم بسهولة أنه يهدم المصلحة العامة"[٢٢].

ووصف مؤرخ الطب برجر هذه المؤلفات:" إن العرب هم الذين أدخلوا النور والترتيب على تراث القدماء الذي طالما اكتنفه الغموض ونقصه التسلسل. وكان النقل الآلي للفقرات وتجميع المعلومات واضطراب المخطوطات الكثيرة لدى

البيزنطيين، مكان كل هذا، صنف العرب كتبا مختصرة جامعة عظيمة التماسك صبوا فيها كل المواد الدراسية الخاصة، وعرفوا كيف يقدمون العلوم في أشكال سهلة، وصاغوا في لغتهم الحية التي لم تمت فيها كلمة، تعابير علمية مثالية"[٢٣].

ونحا هؤلاء الأجداد الأفذاذ في تآليفهم منحيين أحدهما: إصدار الكتب والموسوعات الطبية الشاملة لكل الطب، والآخر: إصدار كتب ومقالات ورسائل متخصصة في شتى موضوعات الطب.

الكتب الطبية الشاملة:

حاول كثير من كبار الأطباء العرب جمع كل المعارف الطبية في كتاب واحد ليحوي الجزء النظري والعملي من الصنعة ويكون شاملاً الأصول النظرية والتشريح وطرق التشخيص والأمراض والأدوية المفردة والمركبة والطرق الجراحية المعروفة وطرق حفظ الصحة والوقاية.

وغرضهم في ذلك تسهيل تعليم الطب لطالبه بحيث يكفي كتاب واحد ليبلغ الطالب غايته. فظهرت موسوعات طبية كانت عونا لدارسي الطب لعدة قرون، سواء في العالم العربي الإسلامي أو لأوروبا بعد ترجمتها إلى اللاتينية. حيث كانت معتمدة للتدريس في كليات الطب في أوروبا إلى القرن السابع عشر الميلادي، وأصبح أصحابها مثل الرازي وابن سينا والمجوسي وغيرهم معروفين في الغرب إلى جانب أبقراط وجالينوس واعتبروا أهم المصادر الطبية بل إن بعضهم في الغرب قدمهم على أبقراط وجالينوس. ذكرت زيجريد هونكة في

كتابها شمس العرب تسطع على الغرب: "ظهر بوضوح للعيان إلى أي مدى سبق العرب معلميهم اليونانيين فمن بين الأطباء المشهورين في القرن الخامس عشر كان الاعتبار الأول يرجع إلى الأطباء المتأثرين بالعرب الذين كان ابن سينا والرازي وابن زهر، وعلي بن العباس وأبو القاسم يعنون لهم كل شيء، فأخذوا عنهم تطبيقاتهم العملية على أسرّة المرضى وقد قام أحدهم بمحاولة إحصاء التأثير العربي واليوناني على طبقة المثقفين آنذاك (تقصد في أوروبا)، والتعبير عنه بشكل أرقام كأي إحصاء عادي، فانتقى كتابا للنبيل فراري دوغرادو الأستاذ في بافا من أعمال إيطاليا، وكان قد جمعه بفضل ملاحظته الخاصة، فطالعه محصيا فيه أسماء العلماء العرب واليونانيين بدقة ووصل إلى النتائج التالية:

ذكر ابن سينا ما ينيف على ثلاثة آلاف مرة، والرازي وجالينوس ألف مرة وأبقراط مائة وأربعين مرة "[٢٤].

سنذكر هنا بعض الكتب الشاملة هذه على سبيل المثال وليس الحصر:

أول كتاب منهجي ظهر في هذا المجال كان كتاب فردوس الحكمة لعلي بن الطبري.

كتاب "كامل الصناعة الطبية الضرورية" وعرف "بالكتاب الملكي" لعلي بن العباس المجوسي، يعد أحد أشهر الكتب الطبية ذات التأثير في العصور الوسطى، وكان له تأثير كبير في الغرب. وعلي بن العباس هو أول من ذكر وجود شبكة شعرية بين العروق النابضة (الشرايين) والعروق غير النابضة (الأوردة)،

وهو الذي أعطى للعلامات السريرية أهمية كبيرة، وعارض القدماء ببرهانه أن الطفل في الولادة لا يخرج بحركته الذاتية بل بفعل تقلصات الرحم[٢٥] قال القفطي عن هذا الكتاب:

"مال الناس إليه في وقته ولزموا درسه إلى أن ظهر كتاب القانون لابن سينا فمالوا إليه وتركوا الملكي بعض الترك، والملكي في العمل أبلغ، والقانون في العلم أثبت"[٢٦].

كتاب "المختار في الطب" لابن هبل البغدادي في أربع مجلدات.

كتاب "الكليات" في الطب لابن رشد وكان ناقصا فأكمله صديقه أبو مروان ابن عبدالملك بن زهر بكتاب "التيسير في المداواة والتدبير".

كتاب " تقويم الأبدان " لابن جزلة الذي وضع فيه الأسباب والأعراض والتشخيص والعلاج لأكثر من ثلاثمئة واثنين وخمسين مرضاً.

كتاب " الحاوي " لأحد أعظم أطباء الإنسانية وأول الأطباء السريريين وجالينوس العرب أبي بكر الرازي. وكتابه هذا أحد أعظم الموسوعات الطبية وأجل الكتب العلمية العملية، جمع بين دفتيه كل المعارف الطبية منذ أبقراط إلى عصره، مستفيداً من معارف اليونان والفرس والهند والعرب، محققاً لها مضيفاً إليها بما توصل إليه من تجاربه وخبرته الخاصة. إنه كتاب يعبر عن الأصالة والإبداع في الطب العربي المعتمد على الملاحظات والمشاهدات السريرية. لننقل هذه الفقرة من ملاحظاته السريرية عن مريض: " كان عبدالله بن سواده فريسة

حمى قوية كانت تعاوده كل سنة أحياناً كل يومين وأحياناً أخرى كل أربعة أيام. وكان يصحبها دوماً ارتجاف قليل ويكثر فيها ماؤه. فقلت له: إن حالته هذه ناتجة عن حمى الملاريا أو عن دمل في كلوته. وبعد وقت قليل وجدت قيحا في بول المريض، فأخبرته بأن عهد الحمى قد ولى، وهكذا كان، والذي منعني في البدء عن الكشف بشكل نهائي أكيد على هذا الدمل في الكلوة يرجع إلى كون المريض مصابا بالحمى المتغيرة. وكان اعتقادي بأن سبب هذه الحمى يعود إلى التهابات داخلية صحيحاً؛ وإن العليل لم يشك لي أوجاعا في حوضه كلما هم بالقيام، ونسيت أن أسأله ذلك. فالإكثار من التبويل أكد ظني بوجود دمل في كلوته. ولو أنني علمت بأن أباه قد عانى الكثير من ضعف في المثانة قد عالجها في صباه لما ترددت لحظة في معاينتي. لذلك فإنه من واجبنا عدم إهمال أي شيء وبذل العناية القصوى في البحث كما أراد الله. ولما أخذ المريض في إنزال قيح من بوله وصفت له مدرا للبول حتى صفا البول من القيح وبعدها وصفت له دواء ناجعا"[٢٧]. هل يستطيع طبيب في العصر الحديث أن يعطي وصفا سريريا أفضل من هذا النص؟

أما كتابه الموسوعي الآخر فهو المنصوري يتناول في الجزء التاسع منه (الكتاب التاسع) أمراض الجسم من الرأس إلى القدم. وهذا الكتاب كان مقررا في جامعة توبنجن في ألمانيا إلى نهاية القرن الخامس عشر[٢٨].

"القانون في الطب" لابن سينا أحد أكثر الكتب تأثيرا ونفوذا في العصور الوسطى إلى بدايات العصر الحديث سواء عند العرب أو في الغرب.

ولأهمية هذا الكتاب سنأخذه مثلاً عن الكتب الشاملة لنعطي نبذة عن الموضوعات التي تتناولها. ونحن لن نقوم بشرح هذا الكتاب، حيث إن شرحه يستنفذ مجلدات طويلة من الجهد، فقط سنوضح الموضوعات الطبية التي كانت هذه الكتب تتناولها وعلى طالب الطب معرفتها، ولنرى أنها في تناولها للموضوعات أشمل من كتب تدريس الطب الحديثة.

القانون في الطب مقسم أساسا إلى خمسة كتب:

الكتاب الأول:

مقسم إلى أربعة فنون:

الفن الأول: في حد الطب وموضوعاته من الأمور الطبيعية:

يقسم هذا الفن إلى ستة دروس يطلق على كل درس منها لفظ التعليم، يتناول التعليم الأول إلى التعليم الرابع نظرية الطب التي كانت سائدة في ذلك الزمان وتحدثنا عنها في هذا الكتاب بإيجاز، من أركان وأمزجه وأخلاط.

يتناول التعليم الخامس: تشريح الأعضاء المكونة لجسم الإنسان ووظائف هذه الأعضاء ويتكون من خمس جمل:

الجملة الأولى : تتناول العظام وتتكون من ثلاثين فصلا.

الجملة الثانية : تتناول العضل وهي ثلاثون فصلا.

الجملة الثالثة : في العصب وهي ستة فصول.

الجملة الرابعة : في الشرايين وهي خمسة فصول.

الجملة الخامسة: في الأوردة وهي خمسة فصول.

التعليم السادس: في القوى والأفعال وهو من جملة واحدة وتتكون من ستة فصول.

الفن الثاني في ذكر الأمراض والأسباب والإبهام الكلية:

ويتكون من ثلاثة دروس:

التعليم الأول في الأمراض وهو ثمانية فصول.

التعليم الثاني في الأسباب (ولأهمية الموضوعات المذكورة وطرافتها سنذكرها كاملة) ويتكون من جملتين:

الجملة الأولى في الأشياء التي تحدث عن سبب من الأسباب العامة وهي تسعة عشرة فصلا:

١- قول كلي في الأسباب.

٢- تأثير الهواء المحيط بالأبدان.

٣- طباع الفصول.

٥- الهواء الجيد.

٤- أحكام الفصول وتغيراتها.

٦- فعل كيفيات الأهوية ومقتضيات الفصول.

٧-أحكام تركيب السنة.

٨- تأثيرات التغييرات الهوائية التي ليست بمضادة للمجرى الطبيعي جدا.

٩- تأثير التغيرات الهوائية الرديئة المضادة للمجرى الطبيعي.

١٠- موجبات الرياح.

الرياح الشمالية

الرياح الجنوبية

الرياح المشرقية

الرياح المغربية

١١- موجبات المساكن:

أحكام المساكن.

المساكن الحارة.

المساكن الباردة.

المساكن الرطبة.

المساكن اليابسة.

المساكن العالية.

المساكن الغائرة.

المساكن الحجرية المكشوفة.

المساكن الجبلية الثلجية.

المساكن البحرية.

المساكن الشمالية.

المساكن الجنوبية.

المساكن الشرقية.

المساكن الغربية.

اختيار المساكن وتهيئتها.

١٢- موجبات الحركة والسكون.

١٣- موجبات النوم واليقظة.

١٤- موجبات الحركات النفسانية.

١٥- موجبات ما يؤكل ويشرب.

١٦- أحوال المياه.

١٧- موجبات الاحتباس والاستفراغ.

١٨- أسباب تتفق للبدن غير ضرورية ولا ضارة.

١٩- موجبات الاستحمام والتضحي بالشمس والاندفان في الرمل والتمرغ فيه والاستنقاع في الأدهان ورش الماء على الوجه.

الجملة الثانية في تعديد سبب لكل واحد من العوارض البدنية وهي تسعة وعشرون فصلا:

١- المسخنات.

٢- المبردات.

٣- المرطبات.

٤- المجففات.

٥- مفسدات الأكل.

٦- أسباب السدة وضيق المجاري.

٧- أسباب أتساع المجاري.

٨- أسباب الخشونة.

٩- أسباب الملامسة.

١٠- أسباب الخلع ومفارقة الوضع.

١١- أسباب سوء المجاورة لمنع المقاربة.

١٢- أسباب سوء المجاورة لمنع المباعدة.

١٣- أسباب الحركات غير الطبيعية.

١٤- أسباب زيادة العظم والغدد.

١٥- أسباب النقصان.

١٦- أسباب تفرق الاتصال.

١٧- أسباب القرحة.

١٨- أسباب الورم.

١٩- أسباب الوجع على الإطلاق.

٢٠- أسباب وجع وجع.

٢١- أسباب سكون الوجع.

٢٢- فيما يوجبه الوجع.

٢٣- أسباب اللذة.

٢٤- كيفية إيلام الحركة.

٢٥- كيفية إيلام الأخلاط الرديئة.

٢٦- كيفية إيلام الرياح.

٢٧- أسباب ما يحبس ويستفرغ.

٢٨- أسباب التخمة والامتلاء.

٢٩- أسباب ضعف الأعضاء.

التعليم الثالث: في الأعراض والدلائل وهو أحد عشر فصلا وجملتان:

في هذه الفصول يتحدث عن الأعراض والعلامات بوجه عام، ثم عنها عند الحالات المرضية، مثل العلامات الدالة على الامتلاء، أو غلبة خلط على خلط، أو الدالة على السدد، أو الدالة على الأورام وهكذا.

أما في الجملة الأولى فقد كتب عن علامات النبض وما يدل عليه، وهي تسعة عشر فصلاً، تحدث فيها عن النبض بوجه عام وأنواعه ودلالاته، وبه فصول طريفة مثل نبض الذكور والإناث ونبض الأسنان، أو عن نبض الفصول ونبض البلدان، النبض الخاص بالنساء وهو نبض الحبالى، ونبض الأوجاع ونبض الأورام، وأحكام نبض العوارض النفسانية.

الجملة الثانية في البول والبراز وهي ثلاثة عشر فصلا:

تحدث فيها عن دلائل البول بوجه عام، ثم عن دلائل ألوانه وقوامه وصفاته

وكدرته ورائحته وترسبه، ثم دلائل كثرة البول وقلته، والبول الصحي وفي أبوال النساء والرجال، بل كتب فصلا عن أبوال الحيوانات ومقارنتها ببول الإنسان. وأفرد فصلاً واحداً فقط عن دلائل البراز.

وقد اهتم ابن سينا بدلائل النبض والبول كغيره من أطباء هذا العصر للنقص الحاد في طرق التشخيص وأدواته في ذلك الزمن، والتي تطورت في العصر الحديث تطورا مذهلا مما سهل تشخيص الأمراض مقارنة بذلك العصر. وعلينا أن لا نسخر من طرق تشخيصهم البدائية، بل على العكس علينا أن نحني لهم رؤوسنا إجلالاً للكيفية التي استطاعوا بها أن يستنطقوا هذه الدلائل البدائية ليتوصلوا إلى هذه النتائج الباهرة في تشخيصهم للأمراض في ذلك العصر، ووصفهم لها في مؤلفاتهم.

الفن الثالث في سبب الصحة والمرض وضرورة الموت:

(بلغة هذا العصر نستطيع أن نطلق عليه علم صحة المجتمع والطب الوقائي).

وهو في خمسة دروس:

التعليم الأول في التربية وهو في أربعة فصول:

١- تدبير المولود كما يولد إلى أن ينهض.

٢- تدبير الإرضاع والنقل.

٣- الأمراض التي تعرض للصبيان وعلاجها.

٤- تدبير الأطفال إذا انتقلوا إلى سن الصبا.

التعليم الثاني في التدبير المشترك للبالغين وهو سبعة عشر فصلا:

١- جملة القول في الرياضة. ٢- أنواع الرياضة.

٣- وقت ابتداء الرياضة وقطعها. ٤- الدلك.

٥- الاستحمام وذكر الحمامات. ٦- الاغتسال بالماء البارد.

٧- تدبير المأكول. ٨- تدبير الماء والشرب.

٩- النوم واليقظة.

١٠- فيما يجب أن يؤخر عن هذا الموضع.

١١- تقوية الأعضاء الضعيفة وتسمينها.

١٢- الإعياء الذي يتبع الرياضات وتعظيم حجمها.

١٣- التمطي والتثاؤب.

١٤- علاج الإعياء الرياضي.

١٥- أحوال أخرى تتبع الرياضات من أحوال.

١٦- علاج الإعياء الحادث بنفسه.

١٧- تدبير الأبدان التي أمزجتها غير فاضلة.

التعليم الثالث في تدبير المشايخ وهو ستة فصول:

التعليم الرابع في تدبير بدن من مزاجه فاضل وهو خمسة فصول:

التعليم الخامس: في الانتقالات وهو فصل مفرد وجملة:

الجملة في تدبير المسافرين وهي ثمانية فصول:

١- تدارك أعراض تنذر بأمراض.

٢- قول كلي في تدبير المسافر.

٣- توقي الحر وخصوصا في السفر وتدبير من يسافر فيه.

٤- تدبير من يسافر في البرد.

٥- حفظ الأطراف عن ضرر البرد.

٦- حفظ اللون في السفر.

٧- توقي المسافر مضرة المياه المختلفة.

٨- تدبير راكب البحر.

الفن الرابع في تصنيف وجوه المعالجات بحسب الأمراض الكلية ويشتمل على اثنين وثلاثين فصلا تحدث فيه عن علاج الأمراض المختلفة بوجه عام.

الكتاب الثاني: عن علم الصيدلة والعقاقير بوجه عام مع معجم للأدوية المفردة مرتب على ترتيب الحروف الأبجدية.

الكتاب الثالث: يتناول الأعضاء الداخلية للإنسان من جهة تشريحها ووظائفها وأمراضها وعلاجها.

الكتاب الرابع: يتناول موضوع الحميات ثم موضوع الإشارات والدلائل والأعراض المرضية التي تكشف وجود المرض، ثم أنواع الجراحات وعلاج الجروح والكسور، ثم يتناول السموم وبعد ذلك الأمراض الجلدية.

الكتاب الخامس: إكمالا لعلم الصيدلة أو بالأحرى علم الصيدلة المتقدمة وهو علم الاقراباذين ويتناول فيه الأدوية المركبة واستعمالاتها وطرق تحضيرها وصنعها.

لهذا كله لا تعجب عزيزي القارئ عندما تعلم أن هذا الكتاب طبع باللاتينية ست عشرة مرة في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي، وأعيد طبعه عشرين مرة في القرن السادس عشر. هذا فقط بالنسبة للطبعات الكاملة للقانون أما الطبعات الجزئية فلا حصر لها [٢٩].

الكتب والمقالات والرسائل في شتى موضوعات الطب:

إلى جانب الكتب الشاملة هذه (الموسوعات الطبية) أصدر أطباء الحضارة العربية الإسلامية كتبا ومقالات ورسائل في شتى الموضوعات الطبية المباشرة وغير المباشرة، فإلى جانب موضوعات الأمراض وطرق العلاج وكتب الأدوية المفردة والمركبة وكتب الصيدلة المتقدمة "الاقراباذين" ؛ نجد موضوعات مثل الحفاظ على الصحة (التي شغلت حيزا كبيرا من كتابات هؤلاء الأطباء)، وتلك التي تتناول شرف المهنة وسلوكيات الطبيب، وأخرى إدارية كالتي تتناول البيمارستانات أو عيادات الأطباء وغيرها فلسفية مثل علاقة الطب بالسعادة وغيرها.

وسنسرد هنا بعض عناوين هذه المؤلفات على سبيل المثال وليس الحصر. لنتعرف على إبداعات وإنجازات هؤلاء القوم الذين تفوقوا على من سبقهم في تخصصهم وعلى من لحقهم في نظرتهم الشمولية إلى الطب، ولم نحاول الإكثار من عناوين الكتب التي تتناول المرض والعلاج والاقراباذين، بل ركزنا على موضوعات الطب الأخرى التي تناولوها:

اسم المصنف	المؤلف	المصدر
- كتاب الحمام.	قسطا لوقا البعلبكي	عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢/٢٤٦
- مقالة في دفع المضار عن الأبدان بمصر.	علي بن رضوان	عيون الأنباء ٢/١٧٢
- كتاب تدبير المشايخ.	أبوالخير الحسن بن سوار	عيون الأنباء ٢/٣٦٤
- المقالة الناصرية في حفظ الأمور الصحية.	موفق الدين بن المطران	عيون الأنباء ٣/٢٩٧
- كتاب خلق الإنسان.	سعيد بن هبة الله	عيون الأنباء ٢/٢٦٠
- رسالة في مدح الطب وموافقته الشرع والرد على من طعن عليه.	يحيى بن عيسى بن جزلة	عيون الأنباء ٢/٢٦٠
- شرح أحاديث نبوية تشتمل على طب.	أمين الدولة بن التلميذ	عيون الأنباء ٢/٢٩٣
- اقرابادين الموجز البيمارستاني.		
- مقالة في أن اللذة في النوم في أي وقت توجد منه.	أبوالغنائم هبة الله بن إثردي	عيون الأنباء ٢/٣٢٤
- كتاب منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير.	أبوالحسن علي بن سهل بن رين الطبري	عيون الأنباء ٢/٣٤٢
- كتاب الطب الروحاني ويعرف بكتاب طب النفوس.	أبوبكر الرازي	عيون الأنباء ٢/٣٥٢

اسم المصنف	المؤلف	المصدر
- كتاب الشكوى والمناقضات التي في كتب جالينوس.	أبوبكر الرازي	عيون الأنباء ٢/٣٥٢
- كتاب في أن الطين المتنقل فيه منافع.	أبوبكر الرازي	الفهرست ٣٦١
- كتاب في أن الحمية المفرطة تضر بالأبدان.	أبوبكر الرازي	الفهرست ٣٦١
- كتاب في الأسباب المميلة لقلوب الناس عن أفاضل الأطباء إلى أخسائهم.	أبوبكر الرازي	الفهرست ٣٦١
- المدخل إلى صناعة الطب.	أبوبكر الرازي	الفهرست ٣٦١
- كتاب ما يقدم من الفواكه والأغذية وما يؤخر.	أبوبكر الرازي	الفهرست ٣٦١
- كتاب الرد على جرير الطبيب فيما خالف فيه أمر التوت الشامي بعقب البطيخ.	أبوبكر الرازي	الفهرست ٣٦١
- كتاب الحصى في الكلى والمثانة.	أبوبكر الرازي	الفهرست ٣٦٢
- كتاب إلى من لا يحضره طبيب.	أبوبكر الرازي	الفهرست ٣٦٢
- كتاب صفة البيمارستان.	أبوبكر الرازي	عيون الأنباء ٢/٣٦١
- رسالة في الحمام ومنافعه ومضاره.	أبوبكر الرازي	عيون الأنباء ٢/٣٦١

اسم المصنف	المؤلف	المصدر
- كتاب الباه (يبين منافع الباه ومضاره).	أبوبكر الرازي	عيون الأنباء ٢/٣٥٥
- مقالة في مراتب قوى الإنسان وكيفية الإنذارات التي تنذر بها النفس فيما يحدث في عالم الكون.	أبوسليمان السجستاني	عيون الأنباء ٢/٣٦٢
- كتاب في خلق الإنسان وتركيب أعضائه.	أبوالخير الحسن بن سوار	عيون الأنباء ٢/٣٦٤
- كتاب علل العلل.	أبومنصور الحسن بن نوح القمري	عيون الأنباء ٢/٣٧٠
- كتاب في الوباء.	أبوسهل المسيحي	عيون الأنباء ٢/٣٧١
- كتاب الحميات.	إسحاق بن سليمان	عيون الأنباء ٣/٥٨
- كتاب الأشخاص والأدوية.	إسحاق بن سليمان	عيون الأنباء ٣/٥٨
- كتاب زاد المسافر.	ابن الجزار	عيون الأنباء ٣/٦١
- كتاب قوت المقيم.	ابن الجزار	عيون الأنباء ٣/٦١
- كتاب طب الفقراء.	ابن الجزار	عيون الأنباء ٣/٦١
- كتاب في الفرق بين العلل التي تشتبه أسبابها وتختلف أعراضها.	ابن الجزار	عيون الأنباء ٣/٦١
- رسالة في النوم واليقظة.	ابن الجزار	عيون الأنباء ٣/٦١
- مجريات في الطب.	ابن الجزار	عيون الأنباء ٣/٦١

اسم المصنف	المؤلف	المصدر
- كتاب المختبرات!	ابن الجزار	عيون الأنباء ٣/٦١
- كتاب في نعت الأسباب المولدة للوباء في مصر وطريق الحيلة في دفع ذلك وعلاج ما يتخوف منه.	ابن الجزار	عيون الأنباء ٣/٦١
- كتاب في مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرر من ضرر الوباء.	التميمي	عيون الأنباء ٣/١٤٦
- مقالة في إبطال رأي من يرى أن العظام مركبة من أجزاء كل جزء منها لا جزء له.	الحسن بن الهيثم	عيون الأنباء ٣/١٦٠
- رسالة في تأثيرات اللحون الموسيقية في النفوس الحيوانية.	الحسن بن الهيثم	عيون الأنباء ٣/١٦٠
- مقالة في جوهر البصر وكيفية وقوع الإبصار به	الحسن بن الهيثم	عيون الأنباء ٣/١٦٠
- كتاب الأصول في الطب.	علي بن رضوان	عيون الأنباء ٣/١٧١
- مقالة في الشعير وما يعمل منه.	علي بن رضوان	عيون الأنباء ٣/١٧١
- جواب لمسائل في لبن الأتن.	علي بن رضوان	عيون الأنباء ٣/١٧٢
- مقالة في أدوار الحميات.	علي بن رضوان	عيون الأنباء ٣/١٧٣

اسم المصنف	المؤلف	المصدر
- مقالة في التطرق بالطب إلى السعادة.	علي بن رضوان	عيون الأنباء ٣/١٧٣
- كتاب النافع في كيفية تعلم صناعة الطب.	علي بن رضوان	عيون الأنباء ٣/١٧١
- مقالة في شرف الطب.	علي بن رضوان	عيون الأنباء ٣/١٧٣
- مقالة في هواء مصر.	علي بن رضوان	عيون الأنباء ٣/١٧٤
- كتاب فيما ينبغي أن يكون في حانوت الطبيب.	علي بن رضوان	عيون الأنباء ٣/١٧٤
- رسالة في دفع مضار الحلوى بالمحرور.	علي بن رضوان	عيون الأنباء ٣/١٧٤
- مقالة في التقرير القياسي على أن البلغم يكثر تولده في الصيف، والدم والمرار الأصفر في الشتاء.	افرائيم بن الزفان	عيون الأنباء ٣/١٧٥
- مقالة في خصب أبدان النساء بمصر عند تناهي الشباب.	سلامة بن رحمون	عيون الأنباء ٣/١٧٧
- كتاب في الأمراض وأسبابها وعلاماتها.	رشيد الدين أبوحليقة	عيون الأنباء ٣/٢١٦
- كتاب الجامع في الأدوية المفردة.	ضياء الدين بن البيطار	عيون الأنباء ٣/٢٢٢
- مقالة في أن الحيوان يموت	ظاهر بن جابر السكري	عيون الأنباء ٣/٢٤٠

اسم المصنف	المؤلف	المصدر
مع أن الغذاء يخلف عوض ما يتحلل منه.		
- مقالة في القولنج.	عفيف بن سكرة	عيون الأنباء ٣/ ٢٧٠
- كتاب النخبة وهو خلاصة الأمراض الحادة.	موفق الدين عبداللطيف البغدادي	عيون الأنباء ٣/ ٣٤٧
- مقالة في العطش.	موفق الدين عبداللطيف البغدادي	عيون الأنباء ٣/ ٣٤٧
- مقالة في الماء.	موفق الدين عبداللطيف البغدادي	عيون الأنباء ٣/ ٣٤٧
- مقالة في شفاء الضد بالضد.	موفق الدين عبداللطيف البغدادي	عيون الأنباء ٣/ ٣٤٧
- مقالة في الجنس والنوع.	موفق الدين عبداللطيف البغدادي	عيون الأنباء ٣/ ٣٤٩
- مقالة في حد الطب.	موفق الدين عبداللطيف البغدادي	عيون الأنباء ٣/ ٣٤٩
- كتاب في آلات التنفس وأفعالها.	موفق الدين عبداللطيف البغدادي	عيون الأنباء ٣/ ٣٤٧
- مقالة في التنفس والصوت والكلام.	موفق الدين عبداللطيف البغدادي	عيون الأنباء ٣/ ٣٤٨
- رسالة في تعذر وجود الطبيب الفاضل ونفاق الجاهل.	ابن العين الزربي	عيون الأنباء ٣/ ١٧٩

أصالة إبداع علماء الحضارة العربية الإسلامية في الطب

كما قلنا سابقا إن غرضنا من إيراد عناوين بعض المصنفات التي كتبت في هذا العصر ليس الحصر بل لضرب أمثلة على شمولية وأصالة الموضوعات الطبية التي تناولوها وبالتالي الدلالة على مدى عبقريتهم وأصالتهم وإبداعهم.

لقد سررنا بتفضل بعض من اعتبرناهم من المنصفين من المستشرقين حينما كتبوا: إذا كان اليونانيون هم واضعي الأسس النظرية لعلم الطب؛ فإنّ العربَ هم واضعو الأسس العملية لهذا العلم. ونحن إن كنا نتفق معهم في هذه الحقيقة؛ فإننا نعتبرها حقيقة ناقصة. فالطب على الرغم من كونه علماً تجريبياً تطبيقياً وليس من العلوم الطبيعية البحتة؛ فإن الإغريق أخضعوه لنظرتهم الفلسفية وتأملاتهم المجردة وحاولوا إغراقه تحت النظريات الفلسفية. وقد حاول أبقراط إخراج الطب من هذه النظرة الفلسفية البحتة وتبني نظرية العناصر الأربعة والأخلاط الأربعة، ليعطي الطب نظرية عملية تستطيع أن تفسر العمليات الحيوية ومسببات الأمراض وعلاجها، وفتح بذلك مجالا للطب العملي، ولكن بموت أبقراط سيطرت الناحية النظرية مرة أخرى على الناحية العملية، وانتصر الاستدلال المنطقي لأرسطو وأفلاطون على الاستدلال العملي التجريبي.

وكان التناقض بأن الطامة الكبرى جاءت على يدي أحد أكبر أطباء التاريخ على مر العصور (من وجهة نظر المؤرخين الغربيين)، ألا وهو جالينوس الذي أخضع علم الطب كغيره من العلوم للنظريات الفلسفية وإن كانت مضطربة، مستندا على أساليب جدلية بحتة، مما أفقد الطب أحد أهم سماته من كونه علماً تطبيقياً تجريبياً وأن معارفه يتحصل عليها بالمشاهدة والملاحظة السريرية وبالتجربة والمحاولة.

والعرب وإن تبنوا نظرية العناصر الأربعة والأخلاط الأربعة لعمليتها وسهولتها ومناسبتها لهم في اتجاههم العملي التجريبي وكذلك للإمكانيات المعرفية لذلك العصر؛ فإنهم رفضوا كثيرا من هذه النظريات المضطربة، وانتقدوها شديد الانتقاد، بل أعادوا صياغة الأسس النظرية بمنهجهم العلمي التجريبي. هذا المنهج الذي خطوا به الخطوات الأولى في تحطيم نظرية العناصر الأربعة والأخلاط الأربعة من جذورها والتي تمت في العصر الحديث بالمنهج العلمي التجريبي العصري القائم على أسس المنهجية العلمية التجريبية العربية.

أصالة إبداع ابن سينا وتمرده على نظرية أبقراط:

فهذا ابن سينا يتمرد على أبي الطب ونظريته في العناصر الأربعة. وهو على الرغم من أنه تبنى هذه النظرية؛ لم يتردد في مخالفتها عندما أثبت بالمشاهدة والملاحظة والتجربة في حالة معينة خطأها: فحسب نظرية العناصر والأمزجة والأخلاط أن تقيح الجروح عملية مرغوب فيها لشفاء الجروح، وإذا لم يتقيح الجرح فلا بد من إحداثه لكي يلتئم الجرح، فجاء ابن سينا وعارض ذلك بنظرية "الجروح الخالصة من التقيح"، أي لكي يشفى الجرح فلا بد من منع التقيح عنه وحفظه نظيفا. فكان نجاحه هائلا يكاد يكون معجزة لا تصدق فكم من جرح استغرق علاجه أشهرا بدون أن يشفى أو أدّى إلى فقد العضو أو فقد الحياة نفسها فجاء ابن سينا فعالجه بلمح البصر بحفظه نظيفاً بعيداً عن أي تأثير كيميائي وبمداواته بالكحول واللزوقات الساخنة[٣٠]. فكان ذلك انتصارا للمنهجية التجريبية على النظرية الفلسفية.

أصالة إبداع ابن النفيس ومخالفته لجالينوس:

وهذا ابن النفيس لم يتردد في مخالفة أكبر أقطاب الطب القديم وأكثرهم نفوذا، ليس هذا فقط بل انتقد جالينوس ونظرياته نقدا شديدا، واصفا إياه "بالعي والإسهاب الذي ليس تحته طائل" (٣١).

لقد أتينا على ذكر نظرية جالينوس عن التنفس في الفصل الأول من هذا الكتاب أثناء الحديث عن الطب عند الإغريق ولا مانع من إعادة ما كتبنا: ولكنه (أي جالينوس) يبتعد عن الدقة العلمية الموضوعية ويقترب من الفلسفة والتأمل التجريدي، عندما يجعل النفس أو الروح تدخل جسم الإنسان آتية من عالم الأرواح خلال عملية التنفس مارة بالقصبة الهوائية ثم يصف دورة هذه الروح خلال جسم الإنسان وصفاً يدل على معرفة ضحلة بالجهاز الدوري.

وجاءت نتائج تشريح(٣٢) ابن النفيس ومنهجه العلمي مناقضة لهذه النظرية فلم يتردد لحظة واحدة في دحضها بنظرية تقوم على المنهج العلمي تقترب من نظرة العلم الحديث إلى عملية التنفس. ولا غرو في ذلك فابن النفيس قال في مقدمته لكتاب "شرح تشريح القانون " الذي وصف فيه الدورة الدموية الصغرى لأول مرة في التاريخ سابقا هارفي ومدعيها سارفيتوس بعدة قرون:

"وأما منافع الأعضاء فإنما يعتمد في تعريفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفه"(٣٣).

لنناقش الآن سوياً كيف توصل ابن النفيس إلى هذه النتائج، لنزداد قرباً وتعرفا بمنهجهم العلمي في البحوث:

١- من تشريح القلب توصل ابن النفيس إلى:

أ) أن للقلب بطينين فقط وليس ثلاثة كما ادعى ابن سينا.

ب) أن الحاجز بين البطينين كثيف لا منفذ بينهما وهو بهذا يخالف من سبقوه بل ويكذبهم قائلا: "والتشريح يكذب ما قالوه"[٣٤] وهذا استدلال على أنه مارس التشريح.

ج) اكتشف في جرم القلب عروقاً منتشرة في أنحائه كلها، وبالتفكير العلمي استنتج بأنَّ هذه العروق هي التي تغذي القلب، مخالفاً بذلك ابن سينا القائل بأنّ القلب يتغذى من الدم الموجود في البطين الأيمن.

(وبهذا يكون ابن النفيس أول من اكتشف الدورة الدموية في الشرايين التاجية).

٢- من تشريح الرئة توصل إلى أن الرئة مؤلفة من الأجزاء التالية:

أ) شعب القصبة الهوائية

ب) شعب الشريان الوريدي

ج) شعب الوريد الشرياني

د) مجمعها دم رخو

٣- من تشريح الأوردة: توصل إلى أن جدران أوردة الرئتين أسمك من جدران شراييها وهي مؤلفة من طبقتين[٣٥].

هذه المعطيات التي كانت لديه، ولنرَ الآن كيف أن عبقريته تجلت باستعماله الفكر المنهجي التحليلي للقيام بوصف الدورة الدموية الصغرى لأول مرة في تاريخ البشرية: بالنسبة إليه القلب يتكون من تجويفين (بطين أيمن وبطين أيسر) بينهما حاجز سميك أصم لا ينفذ الدم منه. فواجهته إشكالية كيف يصل الدم الموجود في التجويف الأيمن (للتلطيف حسب رأيه) إلى التجويف الأيسر؟ حل بعض القدماء هذه الإشكالية بقولهم بوجود منافذ ظاهرة خلال الحاجز بين البطينين، والبعض الآخر ومنهم جالينوس بفكره الفلسفي قالوا بوجود منافذ غير ظاهرة! ولكن ابن النفيس يعلم أن الحاجز بين التجويفين (البطينين) وجرم القلب نفسه غير نافذ، إذاً كيف ينفذ الدم من التجويف الأيمن ليصل التجويف الأيسر؟ هنا وجد ابن النفيس أنه ليس أمام الدم إلا أن ينفذ خلال الشريان الوريدي إلى الرئة حيث يخالط الهواء هناك ويتصفى وينفذ إلى الوريد الشرياني ليصل إلى التجويف الأيسر. بهذه الفرضية الصحيحة توصل ابن النفيس لحل هذه الإشكالية وتوصل كأول إنسان إلى وصف الدورة الدموية الصغرى ليحطم بذلك نظرية دامت مئات السنين وليساهم في إعادة صياغة الأسس النظرية لعلم الطب وليعطينا درساً في كيفية البحث العلمي.

هناك أمثلة أخرى كثيرة في هذا المجال ولكننا اكتفينا بهذين المثالين لإقناعك عزيزي القارئ بأن مقولة: إنّ الإغريق هم واضعو الأسس النظرية لعلم الطب والعرب واضعو الأسس العملية لعلم الطب مجحفة في حق أطباء الحضارة العربية الإسلامية؛ وإن صدقت في شطرها الثاني.

ونحن لا نبالغ إذا قلنا: إنّ أجدادنا هم معيدو صياغة الأسس النظرية لعلم الطب القديم، وواضعو الأسس العملية له، وهم مستنبطو المنهجية العلمية التجريبية التي تشكل اللبنة الأساسية للعلم التجريبي الحديث.

هل بالغنا؟؟

لا أعتقد.

هل أنصفنا؟؟

أرجو ذلك.

سمات وإنجازات الطب العربي في عصر النضج والإبداع

مداخلـــة:

إن الكتابة عن إنجازات الطب في فترة نضجه خلال الحضارة العربية الإسلامية ليحتاج إلى عدد كبير من المجلدات. وذلك إن أردنا فقط الكتابة عن المعروف المنشور عن هذه الفترة، وهذا قد لا يشكل إلا نسبة ضئيلة من المعرفة التي ما زالت المخطوطات العربية تحتفظ بأسرارها وتنتظر من يستنطقها. ولكننا سنحاول قدر المستطاع تبيان أهم السمات والإنجازات في هذا الإيجاز. وأهمية ذلك ترجع إلى أنه لكي يستقيم المعنى ويستطيع القارئ أن يفهم موضوع هذا الكتاب وهو "تنظيم الطب العربي" لا بد له من أن يتعرف أولا على هذا الطب وإنجازاته. فللأسف الشديد وجدنا أن الكثير من الأفراد ومن ضمنهم كثير من زملائنا الأطباء، لا يعلمون إلا القليل عن الطب الذي مارسه أجدادهم الذين كانوا قادة العالم في هذا المجال وأساتذة الغرب الذي نمى عندهم الطب الحديث على الأسس العلمية التجريبية التي وضعت من قبل أطباء الحضارة العربية الإسلامية، وغيرهم من علماء هذه الحضارة. هذه الأسس التي انتقلت مع غيرها من المعرفة إلى الغرب، حيث طورت فتطورت وطورت، وحيث استوطنت وقطع الاتصال عمدا مع الأصل لدينا فتأصلت لديهم ونسبت لهم.

تناسوا هم المصدر وتجاهلوا الفضل، فنسينا نحن الأجداد وجهلنا فضلهم. صدّر لهم الأجداد المعرفة بعد تجديدها معترفين بفضل من سبقوهم، وأعادوا هم تصدير المعرفة للأحفاد بعد تحديثها منكرين فضل الأجداد معترفين بفضل

من سبقوهم من الإغريق.

أعطوا هم مثلاً بالبر بأجدادهم بحفظ حقوقهم، وإسهاماتهم ما هي لهم وما ليس لهم وذلك بالجد والاجتهاد؛ وأعطينا نحن مثلا بالعقوق بأجدادنا بإنكار حقوقهم وإسهاماتهم ونسبتها إلى غيرهم وذلك بجمود الفكر وتوقف الأفعال.

لقد مر معك عزيزي القارئ بعض إنجازات وسمات الطب العربي في فترة نضجه خلال الصفحات السابقة من هذا الفصل، والبعض الآخر سنذكره خلال هذا الإيجاز وبقية أخرى ستأتي خلال الباب الثاني والثالث من هذا الكتاب:

الطب السريري (الطب الإكلينيكي):

أحد أهم الإنجازات التي قدمها أطباء الحضارة العربية الإسلامية للإنسانية وأهم سمات الطب العربي التي ميزته على ما سبق من طب، وحوّل الطب من علم فلسفي تأملي إلى علم تطبيقي تجريبي، يقوم على المشاهدة والوصف.

ولقد شكل طبيبنا العظيم أبو بكر الرازي الحد الفاصل بين الطب التقليدي والطب العربي المستقل القائم على الملاحظة والمشاهدة والوصف السريري.

كتبت زيجريد هونكة في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب: "ولم تصلنا بعد أبقراط وثائق إكلينيكية تستند على حقائق علمية إلى أن ظهر الرازي الطبيب والكيماوي وفيلسوف العرب الشهير، اللهم إلا بعض قصص لجالينوس لم تكن في مستوى وثائق أبقراط علمياً"[٣٦] إلى أن تقول: "والجدير بالذكر أن حركة

تدوين الملاحظات الإكلينيكية لم تستأنف بعد وفاة الرازي إلى أن ظهر أنطونيو بنيفتى الفلورنسي عام ١٥٠٢م"[٣٧].

وإن اتفقنا مع ما قالته الكاتبة الكبيرة فيما يخص الرازي، فإننا نختلف معها فيما ذهبت إليه، بأن تدوين الملاحظات الإكلينيكية قد توقف بعد أبي بكر الرازي. وسنورد هنا بعض النصوص التي تؤكد أن تدوين الملاحظات السريرية كانت أحد سمات الطب العربي [٣٨]:

١- لقد ذكرت الكاتبة نفسها في كتابها عندما كانت تتحدث عن أعمال رئيس الأطباء وذلك نقلا عن ابن أبي أصيبعة:" حدثني شمس الدين أبو الفضل ابن أبي الفرج الكحال المعروف بالمطواع، رحمه الله، أنه شاهده في البيمارستان، وأن أبا المجد بن أبي الحكم (رئيس الأطباء) كان يدور على المرضى به ويتفقد أحوالهم، ويعتبر أمورهم وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى. فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك"[٣٩].

وأبو المجد هذا ظهر بعد الرازي بقرون.

وهناك نصوص أخرى كثيرة تدل على استمرارية تدوين الملاحظات السريرية بعد الرازي، أوردتها كتب التراث الطبي. نورد أحد هذه النصوص من عيون الأنباء في طبقات الأطباء وهو ضمن نصوص كثيرة تتناول ملاحظات سريرية، يبدؤها ابن أبي أصيبعة دائماً بقوله حدثني فلان، وفلان هذا يكون

غالباً أحد أساتذته يحدثه أثناء الدرس، ومن دقة نقل الوصف لا يمكننا إلا أن نستنتج أن فلاناً هذا قد دوّن هذه الملاحظات السريرية بكل دقة:

" وحدثني (يقصد شيخه وأستاذه مهذب الدين) أيضاً عنه (يقصد ابن المطران) أنه كان معه في البيمارستان الكبير الذي أنشأه نور الدين بن زنكي وهو يعالج المرضى المقيمين به فكان من جملتهم رجل به استسقاء زقي قد استحكم به فقصد إلى بزله. وكان في ذلك الوقت في البيمارستان ابن حمدان الجرائحي، وله يد طولى في العلاج فجزموا على بزل المستسقي. قال: فحضرنا وبزل الموضع على ما يجب، فجرت مائية صفراء وابن المطران يتفقد نبض المريض، فلما رأى أن قوته لا تفي بإخراج أكثر من ذلك، أمر بشد الموضع، وأن يستلقي المريض ولا يغير الرباط أصلاً ووجد المريض خفة وراحة كبيـــــرة،..."(٤٠).

ثم نأتي إلى نص يبين لنا أن كتابة الملاحظات السريرية كانت دستوراً واجباً على الطبيب كتب الرهاوي في أدب الطبيب: "وكان الطبيب إذا دخل إلى المريض ليعوده ويطبه يستدعي أول دخوله عليه ورقاً أبيض، فيكتب فيه بعد تأمل حال المريض: دخلت إلى المريض الفلاني، في اليوم الفلاني -وهو اليوم الأول من مرضه، أو الثاني أو الثالث، بحسب ما تهيأ- فوجدت مرضه المرض الفلاني، والذي دلني على ذلك الحالات الفلانية -من حالات قارورته ونبضه- والعلامة الفلانية والفلانية، فأشرت عليه من الدواء بكذا وكذا ومن الغذاء بكذا وكذا. ويدع ما كتبه عند أهل المريض. وعند العودة ينظر ما تغير وحدث أثبته على ما ذكرنا، وكذلك في كل دخلة، وإن رأى علامة منذرة ببحران ذكرها، وإذا وافى

البحران بما أنذر به أثبته إلى نهاية حال المريض والمرض..." [٤١].

أيحتاج هذا إلى أي تعليق هنا؟ لا أعتقد وإن كنا سنتناول هذا النص عند الكتابة عن تنظيم الطب العربي مع نصوص أخرى في هذا المجال أوردها الشيزري وابن الأخوة.

وكلها نصوص تؤكد أن كتابة السيرة المرضية للمريض بما فيها الملاحظات الإكلينيكية كان قانونا ملزما لكل طبيب.

ولم يصل هؤلاء الأطباء العظام إلى ما وصلوا إليه من تميز في الطب السريري، إلا عندما انتشرت لديهم البيمارستانات (المستشفيات)، وأصبح التدريب العملي فيها أحد المتطلبات الأساسية اللازمة إلى جانب الجزء النظري ليتخرج الطبيب ويسمح له بممارسة الطب. (سنتناول ذلك عندما نتحدث عن تنظيم التعليم الطبي).

يقول ابن جميع: "إن أفضل الأماكن للتدريب العملي هي البيمارستانات لأنها مجامع الأطباء والمرضى، وفيها يحصل للمتعلمين الرياضة التامة"[٤٢].

تشخيص الأمراض:

بسبب تطويرهم للطب السريري برع الأطباء العرب في تشخيص الأمراض، وهو ما أطلقوا عليه (الاستدلال على الأمراض) على الرغم من تواضع إمكانياتهم في ذلك الوقت مقارنة بإمكانيات عصرنا الحديث من معرفة متقدمة وأدوات وأجهزة تشخيص متطورة. ولكنهم بالعلم الواسع والعقل النير والحواس المدربة

وقوانين الكشف الدقيقة التي وضعوها؛ استطاعوا أن يشخصوا كثيراً من الأمراض، وأن يصفوا الدواء الناجع لها. وأدواتهم في التشخيص كانت معدودة بسيطة كما قلنا، ولكنهم استغلوها أفضل استغلال للاستدلال على الأمراض وهي:

- علم الطبيب نفسه: حيث عليه أن يكون ماهرا بالعلامات التي تدل على الصحة وعلى أعراض الأمراض ومواقع الأعضاء داخل الجسم (عارفا بالتشريح) ووظائفها وعلامات قصورها أي أن يكون على علم كامل بصناعة الطب.

يقول الرهاوي: "ينبغي للطبيب أن يكون ماهرا بالعلامات والأدلة التي بها يستدل على حالات الأصحاء إذا كان قد تقدم بعلم علامات الصحة فهو عليه أسهل من استدلاله على حالات كثيرة من المرض" (٤٣).

ويقول الرازي: " يحتاج في استدلال علل الأعضاء الباطنة إلى العلم بجواهرها أولا بأن تكون شوهدت بالتشريح، وإلى العلم بمواضعها من البدن وإلى العلم بأفعالها، وإلى العلم بإعظامها، وإلى العلم بما تحتوي عليه، وإلى العلم بفضولها التي تدفع عنها، لأن من لم يعرف ذلك لم يكن علاجه على صواب"(٤٤).

ويقول أيضاً " من أبلغ الأشياء فيما يحتاج إليه في علاج الأمراض بعد المعرفة الكاملة بالصناعة الطبية... "(٤٥). أي إن العلم الكامل أحد أهم طرق

التشخيص.

- شكوى المريض: أولى أطباء الحضارة العربية الإسلامية هذه النقطة اهتماما بالغا لأهميتها في التعرف على المرض. ولا يُكتفى بذلك فقط بل يجب الاستماع إلى أهله وخدمه للتعرف على شكواه. يقول الرهاوي: "ينبغي للطبيب أن يجعل له مبدأ ثانيا، وهو ما يتشكاه المريض، وما يذكره من يخدمه من شكاويه وأوجاعه، أو يتخذ ذلك أصلا للمساءلة، ومتى لم يفعل ذلك بقي مدهوشا متحيراً"(٤٦).

ويقول أبو العلاء صاعد بن الحسن: " وربما كان العليل لا يحسن أن يعبر عما يجد إما لسوء تصرفه في العبارة أو لغموض العلة"(٤٧).

المساءلة:

اعتبر الأطباء العرب الأسئلة التي يوجهها الطبيب إلى المريض أحد الأدوات المهمة المستعملة للاستدلال على المرض.

يقول الرازي:" ينبغي للطبيب ألا يدع مساءلة المريض من كل ما يمكن أن تتولد عنه علته"(٤٨).

ويقول أيضاً: "من أبلغ الأشياء فيما يحتاج إليه في علاج الأمراض بعد المعرفة الكاملة بالصناعة الطبية حسن مساءلة العليل، وأبلغ من ذلك لزوم الطبيب العليل، وملاحظة أحواله، وذلك أنه ليس كل عليل يحسن أن يعبر عن نفسه"(٤٩).

ويصف ابن أبي أصيبعة الطبيب موفق الدين يعقوب قائلا:

"وكان شديد البحث واستقراء الأعراض بحيث إنه كان إذا افتقد مريضا لا يزال يستقصي منه عرضا عرضا، وما يشكوه مما يجده من مرضه حالا حالا إلى أن لا يترك عرضا يستدل به على تحقيق المرض إلا ويعتبره"(٥٠).

ولم يكتفوا بمساءلة المريض فقط، بل شملوا الأهل والخدم. وإذا كان الطبيب غريباً عن بلد المريض، فعليه أن يسأل أحد أطباء هذا البلد الذي يكون أكثر منه معرفة بوضع البلد وهوائه ومياهه وأشباه هذه الأمور(٥١).

والغرض من هذه المساءلة أيضاً التعرف على أحوال المريض وبالتالي الاستدلال على مرضه، قال الرازي: "استخرج سبب الوجع من التدبير والسن والزمان والمزاج"(٥٢).

النبض:

جس النبض أحد أدوات (طرق) التعرف على حالة الجسم الصحية والمرضية، خاصة حال القلب منذ القدم إلى وقتنا الحالي. وطالب الطب في العصر الحديث يدرسه نظرياً ويتدرب عليه عملياً ويمارسه كطبيب مبتدئ في الكشف الأولي، ولكن يقل اعتماده عليه بعد ذلك بسبب استخدامه لأدوات وأجهزة متطورة تساعده على تشخيص أفضل وأسرع. أما في الأزمنة القديمة فلم يكن لديهم من أدوات التشخيص إلا حواسهم، فاستخدموها أفضل استخدام ومرنوها أفضل مران، ومنها جس النبض.

وقد اهتم الإغريق بالنبض ووضع جالينوس كتاباً عنه، وكعادة الإغريق في التأمل والتفكير فإنه احتوى على كثير من التنظير وقليل من التطبيق العملي. وكعادة العرب فإنهم أخضعوه للممارسة والمحك العملي وأعادوا صياغته بعد النقد والتحليل. وحيث إن هذا ليس صلب موضوع هذا الكتاب ولا نريد أن نسترسل بأمثلة كثيرة فسنورد مثالين فقط لنبين صحة ما ذهبنا إليه:

١) انظر في النص النظري لجالينوس وهو يصف الوزن، وهو أحد الأجناس العشرة التي يتعرف الأطباء منها حال النبض. ونحن ننحني احتراما لجالينوس لوصفه هذا على الرغم مِمّا فيه من كثرة تنظير وقلة تطبيق عملي، يقول جالينوس: " إن القدر المحسوس من مناسبات الوزن ما يكون على إحدى هذه النسب الموسيقاوية المذكورة، إما على نسبة الكل والخمسة وهو على نسبة ثلاثة أضعاف، إذا هو الضعف مؤلفه بنسبة الزائد نصفا وهو الذي يقال له نسبة الذي بالخمسة، وهو الزائد نصفا وعلى نسبة الذي بالكل وهو الضعف، وعلى نسبة الذي بالخمسة، وهو الزائد نصفا وعلى نسبة الذي بالأربعة، وهو الزائد ثلثا وعلى نسبة الزائد ربعا، ثم لا يحس"(٥٣).

بالله علينا كيف يمكن الطبيب أن يفرق بين هذه النسب بالجس؟

ويأتي ابن سينا وبأسلوب علمي سهل يحاول أن يسهّل هذا على الطبيب عملياً فيقول:

" وأنا أستعظم ضبط هذه النسب بالجس، وأسهله على من اعتاد درج

الإيقاع وتناسب النغم بالصناعة، ثم كان له قدرة على أن يعرف الموسيقى فيقيس المصنوع بالمعلوم"[٥٤].

المثال الثاني: يبين لنا كيف أن أطباء الحضارة العربية الإسلامية لم يدرسوا جس النبض فقط من الكتب وفي مجالس الدرس النظري، بل درسوه في المستشفيات بجانب أسرة المرضى وهذا لا يختلف عمّا يتم هذه الأيام في التدريس العملي للطب [٥٥].

يصف لنا طبيبنا " ابن أبي أصيبعة " ضمن ما يصف لنا من وصف رائع لمشاهداته أثناء فترة تدريبه في البيمارستان في دمشق تحت إشراف رئيس الأطباء " مهذب الدين عبد الرحيم بن علي "، خلال مرورهم اليومي على المرضى في عنابرهم قائلاً: "ورأيته يوما في قاعة المحمومين وقد وقفنا عند مريض، وجست الأطباء نبضه فقالوا: عنده ضعف لِيُعطَ مرقة الفروج للتقوية. فنظر إليه وقال: إن كلامه ونظر عينيه يقتضي الضعف، ثم جس نبض يده اليمنى وجس الأخرى وقال: جسوا نبض يده اليسرى فوجدناه قوياً. فقال انظروا نبض يده اليمنى وكيف هو من قريب كوعه قد انفرق العرق الضارب شعبتين، فواحدة بقيت؛ التي تجس والأخرى طلعت في أعلى الزند امتدت إلى ناحية الأصابع فوجدناه حقا.ثم قال: إن من الناس وهو نادر من يكون النبض فيه هكذا، ويشتبه على كثير من الأطباء ويعتقدون أن النبض ضعيف"[٥٦].

(عزيزي القارئ أرجو منك أن تعيد قراءة هذا النص عدة مرات كما فعلت عندما قرأته أول مرة. وأزيدك عجباً بأن أقول لك: إن الفاصل الزمني بيننا

وبينه يزيد على الستة قرون.عزيزي القارئ أعد قراءة هذا النص وخاصة إن كنت طبيباً، لقد درستُ الطب في الغرب وتعلمته وتدربت عليه على هذه الطريقة، واعتقدتُ أن التدريب بجانب أسرة المرضى اختراع غربي، وبعد سنين طويلة قرأت هذا النص فدفعني إلى النظر في إنجازات وإسهامات الطب خلال الحضارة العربية الإسلامية. وكم ندمت أنني لم أطلع على ذلك من قبل، وكم تمنيت أن يدرس تاريخ الطب وخاصة تاريخه خلال الحضارة العربية الإسلامية في كليات الطب لدينا، كما يحدث في كثير من كليات الطب في العالم.

قرأت هذا النص فدفعني لإصدار هذا الكتاب لأرفع تهمة العقوق عني. اقرأه عزيزي القارئ وأعد قراءته!).

وبلغ من اهتمامهم بالنبض: كأداة من أدوات التشخيص أنهم درسوا جميع ما يتعلق بالنبض حسب المعرفة المتوفرة لديهم، فجعلوا له عشرة أجناس يتعرف بها حال النبض، وجعلوا له تسعة أحوال بسيطة[٥٧] هي: الطويل والقصير والمعتدل والعريض والضيق والمعتدل والمنخفض والمشرف والمعتدل. وهذا غير المركب الذي صنفوه أصنافاً كثيرة منها على سبيل المثال الغزالي، والموجي، والدودي، والنملي.... وكل حالة منها لها وصف علمي.

وجعلوا من نبض الإنسان الطبيعي معيارا يقارن به الغير طبيعي، وفرقوا بين نبض الذكور والإناث، ووصفوا النبض الطبيعي خلال مراحل العمر المختلفة.

كما وصفوا تأثير الفصول وتأثير المواقع على النبض، ووصفوا النبض أثناء ممارسة الرياضة البدنية في مراحلها المختلفة، عند البدء و عند الاعتدال وعند طول مدة الرياضة وعند شدتها.

وعرفوا نبض الحبالى (الحوامل)، وتأثير الألم على النبض حسب شدته أو مكان الألم، كما وصفوا تأثير الحمى والأورام والتغييرات النفسية على النبض.

البول والبراز:

كما كان جس النبض من أهم أدوات تشخيص الأمراض لقلة الإمكانيات التشخيصية في ذلك العهد؛ كذلك كان فحص البول والبراز وخاصة البول أحد أهم أدوات التشخيص في العصور القديمة. وقد وضع " أبقراط " كتابا عنه اسماه "البول" كان أساساً نظرياً لأطباء الحضارة العربية الإسلامية. ومن نافلة القول أن نقول إن هذا الكتاب قد أخضع للتجربة والاختبار العملي، كما هي عادة أجدادنا في ذلك الوقت. ومن أهمية البول في الاستدلال على المرض، فإنّك لن تجد نصا من ذلك العصر يروي عن كشف طبي على مريض إلا وتجد جملة مثل هذه: " ونظر إلى قارورته" أو قريبة منها.

ووضعوا شروطاً لكيفية جمع البول[٥٨]:

١- أن يكون أول بول في الصباح.

٢- ألا يكون صاحبه شرب ماءً أو أكل طعاماً.

٣- ألا يكون تناول صابغاً من طعام أو شراب كالزعفران والرمان وغيرهما.

٤- ولم يكن تعاطى من الحركات والأعمال الغير طبيعية مثل الصوم والسهر والتعب والجوع والغضب والجماع فهذه كلها تؤثر على لون وقوام البول.

٥- أن يجمع البول في وعاء شفاف نقي كالزجاج الصافي والبلور.

٦- ألا ينظر في البول بعد ست ساعات.

٧- وإذا أخذ البول فيجب أن يصان من تأثير البرد والشمس والريح.

٨- وأن ينظر إليه في الضوء الغير مباشر.

أجناس البول:

وهنا قد يتبادر للذهن سؤال: كيف كانوا يستدلون من البول على الأمراض ولم تكن لديهم مختبرات متطورة؟

وستكون الإجابة باستعمال الحواس التي أجادوا تدريبها، وأخذوا استدلالاتهم من مظاهر البول المختلفة التي سموها أجناساً وجعلوها سبعة:

١- جنس اللون.

٢- جنس القوام.

٣- جنس الصفاء والكدرة.

٤- جنس الرسوب (الترسب).

٥- جنس المقدار في القلة والكثرة (كميته).

٦- جنس الرائحة.

٧- جنس الزبد.

وبعضهم يضيف إلى ذلك أيضا جنس اللمس وجنس الطعم.

وكما في النبض وضعوا وصفاً للبول الصحي أي المعياري، وفرقوا بين بول الأطفال والصبيان والشباب والمشايخ، وبين بول الرجال والنساء.

ووصفوا أبوال الحيوانات للمقارنة بينها وبين أبوال البشر.

وقد بالغ البعض بطرق الاستدلال من البول، يخبرنا الرهاوي في "أدب الطبيب" وأيضاً "ابن أبي أصيبعة" في "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" نقلاً عن الرهاوي[٥٩]، قصة الطبيب (إسرائيل الكبير) المعروف بأبي قريش الذي كان صيدلانياً يجلس على باب قصر الخليفة المهدي، والتي تروي كيف أن هذا الصيدلاني أصبح أحد أهم أطباء القصر، وذلك نتيجة أنه تنبأ مرتين للخيزران جارية المهدي بحملها لغلام من النظر في قارورتها في المرتين. فحملت في المرة الأولى بموسى وفي المرة الثانية بهارون الرشيد. على الرغم من اتهام طبيب البلاط جورجس بن جبرائيل هذه النبوءة بأنها "كذب ومخرقة".

وانتقد الرهاوي مدعي الطب وجهلته الذين يشخصون فقط من النظر في القارورة والتي تصلهم عن طريق خدم المريض وبدون أن يروه أو يسمعوا شكواه[٦٠].

وكذلك فعل طبيبنا الكبير الرازي وسخر منهم، وانتقد الجهل عند الناس الذين ينتظرون من الطبيب أن يكون ساحراً. إذ يقول ساخراً من بعض الأطباء الذين يستدلون من البول العجب:

"إن من له هذا البول قد نام بالأمس مع امرأة عجوز، أو نام على جانبه الأيمن كذا ساعات من الليل وغير ذلك من الهراء"(٦١).

وحاول إقناع جمهور الناس الذين انتقدوه قائلين: "إننا نعتقد بأنك عندما تنظر أنبوبة بولنا ترى كل ما غمض وتخبرنا بما ينتظرنا. ولكننا نلاحظ العكس"(٦٢) أن هذا التنبؤ خارج عن إمكانيات الطب وأنه من صنع الدجالين المدعين.

الكشف الطبي السريري:

بعد كل أدوات التشخيص هذه يأتي الكشف الطبي السريري على المريض باستعمال حواس الطبيب من مشاهدة ولمس وتحسس. ولا يزال في الطب الحديث يعتبر الكشف الطبي على المريض باستعمال حواس الطبيب أحد عناصر التشخيص، وطلبة الطب في جميع كليات الطب يتدربون عليه أثناء دراستهم، ويمارسونه بعد تخرجهم إلى وقتنا الحاضر على الرغم من تطور طرق التشخيص الأخرى.

وعندما يقرأ أطباء عصرنا النص التالي،الذي كتبه أستاذ الطب الكبير علي ابن رضوان قبل حوالي ألف عام؛ سيجدون أنه لا يختلف كثيراً عما درسوه في كليات الطب المعاصرة:

" تعرف العيوب هو أن تنظر إلى هيئة الأعضاء والسحنة والمزاج وملمس البشرة وتتفقد أفعال الأعضاء الباطنة والظاهرة مثل أن تنادي به من بعيد فتعتبر بذلك حال سمعه، وأن تعتبر بصره بنظر الأشياء البعيدة والقريبة، ولسانه بجودة الكلام، وقوته بشيل الثقل والمسك والضبط والمشي وأنحاء ذلك، مثل أن تنظر مشيه مقبلاً ومدبراً، ويؤمر بالاستلقاء على ظهره ممدود اليدين قد نصب رجليه وَصفّهما، وتعتبر بذلك حال أحشائه وتتعرف حال مزاج قلبه بالنبض وبالأخلاق، ومزاج كبده بالبول وحال الأخلاط (سوائل البدن)، وتعتبر عقله بأن يسأل عن أشياء، وفهمه وطاعته بأن يؤمر بأشياء، وأخلاقه إلى ما تميل بأن تعتبر كل واحد منها به ما يحركه أو يسكنه. وعلى هذا المثال أ٦جر الحال في تفقد كل واحد من الأعضاء والأخلاق (الوظائف). أما فيما يمكن ظهوره للحس فلا تقنع حتى تشاهده بالحس، وأما فيما يتعرف بالاستدلال ما يستدل عليه بالعلامات الخاصة. وأما فيما يبحث بالمسألة فابحث عنه بالمسألة، حتى تعتبر كل واحد من العيوب فتعرف هل عيب حاضر أو كان أو متوقع، أم الحال حال صحة وسلامة؟"[٦٣].

هذا نص أبلغ من أي تعليق وخاصة لمن كان طبيباً أو له علاقة بالطب ويدل على مدى التطور العبقري الذي وصل إليه الطب في ظل الحضارة العربية الإسلامية.

علم الأمراض في الطب العربي

من الإجحاف بحق أطباء الحضارة العربية الإسلامية أنه عندما يقرأ إنسان العصر الحديث مؤلفاتهم (خاصة في الأمراض، ووصف نشوئها)؛ يحكم عليها بما توفر له من معرفة علمية صحيحة بفضل التطور الهائل في أدوات التشخيص، وفي الاكتشافات العلمية.

وإن أردنا أن نكون منصفين في حقهم، علينا أن نقارن التطور الذي أوصلوا الطب إليه بمن سبقهم وبمن عاصرهم.

مقارنتهم بمن سبقهم:

قالت زيجريد هونكة: "إن الطب الروماني لم يأت بثقافة طبية من عنده، وإنما اعتمد في مدارسه ترجمات غامضة وشروحات قديمة لتآليف يونانية وبيزنطية، بالإضافة إلى مجموعة من الوصفات العديمة النفع، وكان هذا الإرث المتبقي من أيام القدامى، هو الغرسة التي أينعت وأثمرت بفضل العرب بعد مئتين أو ثلاثمئة عام. لقد كان بوسع هذه الغرسة أن تعرف الربيع؛ ذاك في عهد الرومان لو توفر لديهم النبوغ والتفهم والإقبال الذي كان للعرب" (٦٤).

مقارنتهم بمن عاصرهم:

قال الطبيب البلجيكي سيمون دوكوفينو:" إن كل من يقف مباشرة في

محيط تأثير أعتى الكواكب عداوة وبغضاً، عطارد، سيقع صريعاً في براثن الطاعون"[٦٥].

اقرأ هذا وقارنه بما قاله طبيبنا العربي ابن الخطيمة: "إن نتائج تجاربي الطويلة تشير إلى أن من خالط أحد المصابين بمرض سار أو لبس من ثيابه ابتلى مباشرة بالداء، ووقع فريسة عوارضه نفسها، وإذا ما بصق العليل الأول دما بصق الثاني أيضاً ... وإذا كان للأول دمّل صار للثاني أيضاً"[٦٦].

هكذا سار الأطباء العرب على التعاليم الإسلامية التي تحدثنا عنها في الفصل الأول، يعملون العقل، ويبحثون عن الداء والدواء، ويربطون الأسباب بالمسببات. ولقلة إمكانياتهم، ولنقص المعرفة في ذلك الوقت التي تفسر لهم ظواهر نشوء الأمراض؛ تبنوا نظرية العناصر الأربعة والأخلاط والأمزجة وبها استطاعوا أن يفسروا أسباب ظهور كثير من الأمراض وإن كان في معظم الأحيان تفسيرا خاطئا لخطأ النظرية، ولكن ما ميزهم هو أنهم اعتمدوا على حواسهم وتجاربهم. وإن جاءت نتائج مشاهداتهم وتجاربهم مخالفة للنظرية أثبتوا النتائج وأقروها. وقد مر معنا مخالفة ابن سينا لنظرية العناصر الأربعة في معالجة الجروح، ومخالفة موفق الدين عبداللطيف البغدادي لتشريح جالينوس، وما قاله ابن الخطيمة آنفاً يخالف هذه النظرية أيضاً.

صحيح أنهم تبنوا هذه النظرية وفسروا بها معظم الأمراض، ولكن لم يكن متوافراً غيرها وكانت بسيطة عملية، وظاهرها علمي. لكنهم باكتشافاتهم العملية الكثيرة وضعوا اللبنة الأساسية للمعرفة الحديثة التي أسقطت نظرية العناصر والأخلاط والأمزجة من برجها العالي، بل حطمت البرج من أساسه.

فهذا ابن الخطيب طبيب الأندلس العظيم يساهم في ذلك: "لقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والأخبار المتواردة، هذه هي مواد البرهان، ثم إنه غير خفي على من نظر في هذا الأمر أن من يخالط المصاب بهذا المرض يهلك، ويسلم من لا يخالطه" (٦٧).

وابن سينا ساهم في ذلك من حيث لا يدري بهدم صرح النظرية التي آمن بها عندما وصف مرض الرهقان الناشئ من دودة قام بوصفها فكان أول من وصف دودة الأنكلستوما. ووصفه للجمرة الخبيثة والحمى المصاحبة لها.

والطبري باكتشافه مسبب داء الجرب. والرازي بوضعه أول وصف سريري للجدري والحصبة والتفرقة بينهما في رسالته المشهورة في الجدري والحصبة، إلى جانب إسهاماته الكثيرة في الطب السريري، وابن رشد بحديثه عن المناعة التي يتركها الجدري بعد الإصابة الأولى به، وغيرهم كثيرون كل هؤلاء ساهموا بالمعرفة الصحيحة التي بها أسقطت النظرية.

ويجيء جابر بن حيان فيضع لغماً كامناً لنسف نظرية "العناصر الأربعة والأخلاط والأمزجة"، عندما أكد أن تعادل المواد الكيميائية في جسم الإنسان يعتبر حصانة من الأمراض، فمتى حصل التعادل وجد عند الإنسان مناعة قوية ضد الأمراض الخطيرة مثل البرص والجذام (٦٨).

لقد تمكن أطباء الحضارة العربية الإسلامية العظام أمثال الرازي وابن سينا وعلي بن عباس وابن المطران وابن رضوان وابن بطلان والحسن بن الهيثم

وابن النفيس وابن البيطار، والبغدادي والسرخسي والدخوار، وابن التلميذ وعشرات غيرهم بالعقل المتفتح والجد في التحصيل العلمي وتدريب الحواس على الملاحظة والمشاهدة، ثم إعمال الفكر وتدوين كل هذا إلى اكتشاف كثير من الأمراض التي لم توصف من قبل، أو أعادوا وصف أمراض أخطأ السابقون في وصفها، أو أضافوا إلى أمراض علامات وأعراض لم تعرف من قبل.

لقد عرفوا أن الكوليرا والطاعون والجدري والجذام ينتقل بالعدوى، وفرقوا كما قلنا بين الجدري والحصبة وأعطوا وصفاً سريرياً للحالتين، كما فرقوا بين الحمى الناتجة من الملاريا وحمى الأمراض الأخرى، ووصفوا التهابات الكلى والمثانة وفرقوا بين حصاة الكلى وحصاة المثانة.

كما فرقوا بين ذات الجنب وذات الرئة، ووصفوا قروح الصدر وقروح الرئة وداء السل، كما كانوا بارعين في وصف سدد الكبد والاستسقاء واليرقان وأسبابه وخراجات الكبد، وانسداد الأمعاء والقرحة المعوية والتهابات القولون المختلفة (القولنج).

وأوْلَوا الأمراض الجلدية اهتمامهم فوصفوا الأكزيما والجرب والبرص وداء الثعلب (الثعلبة) وداء الحية والجمرة الخبيثة والتهاب الجلد الدهني.

وأعطوا وصفاً سريرياً لمرض التهاب السحايا وفرقوا بينه وبين تهيج السحايا بسبب أمراض أخرى. ووصفوا شلل الوجه النصفي وفرقوا بين ما كان سببه مركزياً أي في الدماغ وما كان سببه خارجياً أي خارج الدماغ.

ووصفوا التسمم الغذائي ومرض الكلب وأعراضه، والسعال الديكي ومرض النزف، وقاموا بدراسة كثير من السرطانات خاصة في الجهاز الهضمي (البلعوم والمعدة)، وفرقوا بين الأورام الرخوة والأورام الصلبة.

وتعرفوا على أمراض العين المختلفة وفرقوا بين التهاباتها فصنفوها في عدة أنواع من الرمد. ووصفوا السرطان في العين، وخروق القرنية، والبياض في العين، وأمراض الأجفان مثل التصاق الجفنين وانقلاب الجفن وأسموه الشترة، وتقرح القرنية وتقرحات الأجفان، والظفرة والشعر المنقلب والزائد، ووصفوا الماء الأبيض أو ما أسموه نزول الماء (قطرات الماء) فعرف في الغرب "بالكتاراكت" وأعدنا استيراد المصطلح في العصر الحديث ولا يزال معروفا لدينا بهذا الاسم.

وتحدثوا عن ضعف الإبصار، والعرب -ونخص بالذكر الرازي والحسن بن الهيثم- أول من اكتشف أن الإبصار يتم بانعكاس الضوء على الجسم المرئي وتكوين صورة له على شبكية العين، ونقضوا بذلك النظرية القديمة: بأن الإبصار يتم بشعاع يخرج من العين.

ولم يهملوا أمراض الأنف والأذن والأسنان بل إنهم وصفوا أمراض الجهاز التناسلي لدى الرجل والمرأة. فعند الرجل وصفوا عظم (تضخم) الخصيتين، وارتفاع الخصية وصغرها، واسترخاء الصفن، وقروح الخصية والذكر، وأورام القضيب، والثآليل.

وعند المرأة وصفوا الطمث، وسيلان الرحم، وقروح الرحم وتعفنها، وضعف الرحم، واحتباس الطمث وقلته، ونتوء الرحم وخروجه وانقلاباته، وغيرها.

وأولوا الكثير من اهتماماتهم للمرأة الحامل والأحوال التي يمكن أن تتعرض لها. فوصفوا أحوال النفساء وعسر الولادة والأشكال الطبيعية والغير طبيعية للولادة، كما وصفوا ما يمكن أن تتعرض له المرأة بعد الولادة مثل نتوء السرة والفتق والدوالي وغيرها.

وتناولوا أمراض المخ والأعصاب: فوصفوا الصرع وشلل الأعضاء والشلل النصفي (الفالج) والتشنج والكزاز والرعشة وأصنافها. والسكتة الدماغية.

وهكذا نجدهم تناولوا الأمراض التي تصيب الإنسان من الرأس إلى القدم بل إنهم وصفوا كثيراً من الأمراض العقلية والنفسية مثل اختلاط الذهن والهذيان، المالنخوليا، المانيا، آفات الذهن. وربطوا بين الناحية النفسية وتأثيرها في ظهور بعض الأمراض العضوية!

يقول "ابن أبي أصيبعة: "إن الأوهام والأحداث النفسانية تؤثر في البدن أثرا قويا"[٦٩].

ووصلَ اهتمامُهم بجميع أنواع الأمراض إلى أنهم وصفوا بعض أمراض الشذوذ الجنسي، واختلفوا في سببه فمنهم من أرجعه إلى أسباب نفسية (من هؤلاء ابن سينا)، ومنهم من أرجعه إلى أسباب عضوية.

الإنجازات العلاجية

سنتناول هنا بعض الإنجازات التي قدمها أطباء الحضارة العربية الإسلامية في طرق العلاج، وسنتناولها بتفصيل أشمل في الباب الثاني والثالث عندما نتحدث عن تنظيم العلاج ضمن كلامنا عن تنظيم الطب العربي، حيث إن غرضنا في هذا الفصل فقط تعريف القارئ بسمات وإنجازات الطب العربي في أوج نضجه ومجده وليس حصرها.

لقد برع الأطباء العرب في استعمال الحمية والغذاء والأدوية المفردة والمركبة في العلاج. وكتبوا أبحاثاً فيها، نشروها في رسائل وكتب صنفوها لهذا الغرض وأسموها اقراباذين. فمثلا أورد ابن سينا في القانون في الطب " أبحاثا لنحو سبعمئة وستين عقارا[٧٠]. ولم يقروا استعمال الأدوية الجديدة إلا بعد تجريبها على الحيوانات وإجراء الأبحاث اللازمة لذلك، مثل ما كان يفعل الرازي ويجربها على القردة وهو القائل:

"العمر يقصر على الوقوف على فعل كل نبات في الأرض، فعليك بالأشهر مما أجمع عليه، ودع الشاذ واقتصر على ما جربت"[٧١].

وهو نفسه ينصح الأطباء بعدم المبالغة في وصف الحمية الغذائية والتطرف في استعمال الأدوية، وإن هذا قد يضر أكثر مِمّا ينفع، وينشر كتابا لهذا الغرض بالعنوان التالي: "الحمية المفرطة والمبادرة إلى الأدوية والتقليل من الأغذية لا يحفظ الصحة، بل يجلب الأمراض"[٧٢].

والأطباء العرب أول من وصف القهوة لأمراض القلب والتهاب اللوزتين والتهابات الجروح، وكثير من الذي وصفوه بقي بأسمائه العربية بعد انتقال كتبهم إلى أوروبا كالعنبر، والزعفران، والكافور، والتمر الهندي، وعود الند والحشيش والمسك والصندل[٧٣].

ومن أهم إنجازاتهم في استعمال الدواء، هو مخالفتهم لأساتذتهم الإغريق في استعمال الأدوية الخفيفة الملطفة الباردة بدلا من الأدوية القوية الحارة.

فالإغريق اتباعاً لنظرية العناصر الأربعة، استعملوا الأدوية القوية الحارة في علاج الفالج، أو ضد التقيؤ أو الإسهال وغيرها من الأمراض، والتي أدت إلى نتائج وخيمة في معظم الأحيان. وجاء الأطباء العرب وأتباعهم لمنهج التجربة واعتماد نتائجها ولو خالفت النظرية، فتحولوا إلى الأدوية الباردة الملطفة في علاج كثير من الأمراض، مما أدى إلى نتائج علاجية باهرة.

كتب "ابن أبي أصيبعة" في رائعته "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" عند ترجمته للطبيب صاعد بن بشر بن عبدوس ما يلي:

"نقلت من خط المختار بن حسن بن بطلان في مقالته في علة نقل الأطباء المهرة تدبير أكثر الأمراض التي كانت تعالج قديما بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد، كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها ومخالفتهم ذلك لسطور القدماء. قال: إن أول من فطن لهذه الطريقة ونبه عليها ببغداد وأخذ المرضى في المداواة بها واطرح ما سواها الشيخ أبو منصور صاعد بن بشر الطبيب رحمه الله، فإنه أخذ

المرضى بالفصد والتبريد والترطيب ومنع المرضى من الغذاء فأنجح تدبيره وتقدم في الزمان بعد أن كان فاصدا في البيمارستان، وانتهت الرياسة إليه فعول الملوك في تدبيرهم عليه. فرفع عن البيمارستان المعاجين الحارة والأدوية الحادة. ونقل تدبير المرضى إلى ماء الشعير ومياه البرور، فأظهر في المداواة عجائب"[٧٤].

لقد أوردنا هذا النص كاملا لأهميته، ففي اعتقادنا أن ما قام به الطبيب "صاعد بن بشر" كان انقلابا في طرق العلاج في ذلك العصر لا يقل عن الانقلاب الذي حدث في العصر الحديث بظهور المضادات الحيوية أو العلاج الكيماوي.

وعلى ذكر المضادات الحيوية فقد كتبت الكاتبة الألمانية زيجريد هونكة عن عبقرية العرب في مداواة الجروح باستعمال تقليد عربي قديم منذ الجاهلية: حيث حصلوا من سروج حميرهم ودوابهم على مواد (مضادات حيوية - بنسلين) صنعوا منها مراهم وعالجوا بها الجراحات الملتهبة. كما إنها ذكرت أنهم كانوا ينفخون الخبز العفن في الحلق لدى التهابه[٧٥].

ونذكرك عزيزي القارئ بالانقلاب الذي قام به " ابن سينا " على القدماء (الإغريق) في علاج الجروح بطريقة حفظها نظيفة وتعقيمها وإبعادها عن المؤثرات الخارجية.

وسنورد قصة أخرى هنا ترينا كيف كان هؤلاء الأجداد عمليين تطبيقيين في بحثهم عن العقاقير لعلاج مختلف الأمراض:

عالج الطبيب أبو طاهر بن البرخش مريضا به أحد أنواع الاستسقاء، فطال به المرض ولم ينجح علاجه، وفي يوم أكل المريض جرادا، فشفي من المرض وبالبحث والاستقصاء توصل الطبيب إلى مكان صيد هذا الجراد، فوجد حشيشة كان يرعاها الجراد، فأخذ الحكيم من هذه الحشيشة كمية وبالبحث وجد أنها "المازريون" وبدء في استعمالها في علاج الاستسقاء [٧٦].

وإلى جانب العلاج المحافظ أي باستعمال الحمية والغذاء والادوية سواء المفرد منها أو المركب؛ مارسوا التدخل اليدوي مثل الكي والفصد والحجامة والعمليات الجراحية. وقالوا في الكي: " آخر الدواء الكي " "وآخر الطب الكي" واختلفوا في تفسير العبارة فبينما يذهب الغير مختصين في أن المقصود منها هو انه لا علاج ينفع بدواء ولا بغير دواء بعد الكي، أما المختصون فقد عبر عن رأيهم "أبو القاسم الزهراوي: "إنما معنى الكي آخر الطب إنما هو أننا متى استعملنا ضروب العلاج في مرض من الأمراض ولم تنجع تلك الأدوية ثم استعملنا آخر شيء الكي فينجح فمن هنا وقع أن الكي آخر الطب، لا على المعنى الذي ذهب إليه العامة وكثير من جهال الأطباء " [٧٧].

انظر إلى النص التالي من ناحية منهجيته العلمية القائمة على الملاحظة والمشاهدة والتجربة في تفضيل الكي بالنار على الكي بالأدوية المحرقة وما يترتب على ذلك من آثار جانبية يقول الزهراوي: "إن من سر التعالج بالكي بالنار وفضله على الكي بالدواء المحرق لأن النار جوهر مفرد لا يتعدى فعله العضو الذي كوى ولا يضر بعضو آخر إلا ضررا يسيرا، والكي بالدواء المحرق قد يتعدى فعله إلى

ما بعد من الأعضاء وربما أحدث في العضو مرضا يعسر برؤه وربما قتل. والنار لا تفعل ذلك لشرفها وكرم جوهرها إلا إن أفرطت. وقد اتضح لنا ذلك بالتجربة لطول الخدمة والعناية بالصناعة والوقوف على حقائق الأمور " (٧٨).

والزهراوي هذا هو الطبيب الأندلسي المدني الأصل عرف "بأبي الجراحين" أحدث انقلابا وتجديدا في صنعة الجراحة ورفعها من صنعة يدوية محتقرة إلى علم وفن في طرق المعالجة. فأدخل آلات حديثة وطرق مداواة جديدة في تفتيت الحصاة داخل المثانة وعلاج الجروح واستئصال الأورام والسرطانات وشق القصبة الهوائية لمنع الاختناق وعلاج الجروح والكسور بطرق تقترب من الطرق الحديثة. وإيقاف النزيف بربط الشرايين الكبيرة قبل الفرنسي امبرواز باري الذي نسبت إليه الطريقة بستمئة عام. وعلاج الشريان الورمي الناتج من التمدد الوعائي (أم الدم) بالربط والقطع وغيرها من العمليات الرائدة مثل علاج المقعدة الغير مثقوبة، وعلاج الأطفال الذين يولدون ومواضع البول منهم غير مثقوبة، وعلاج البواسير، والناسور، واستئصال السرطان، وأبدع في عمليات ما يخص النساء والولادة. وهو أول من وصف الوضع الجراحي للمريض المعروف بوضع ترندلنبورغ والمنسوب إلى هذا الطبيب الألماني، علما أن الزهراوي وصفه قبله بمئات من السنين.

وإلى جانب الزهراوي كان هناك عشرات الجراحين الذين ساهموا في الارتقاء بفن الجراحة. عالجوا خلع الكتف وتشوهات المفاصل، وابتكار خيوط جديدة للاستعمال الجراحي أما استعمال خيوط الشعر في العمليات الجراحية

فيرجع إلى الرازي. واستطاعوا استئصال ورم اللوزتين، وعلاج نتوء السرة، والفتق، وبط أنواع الخراجات، وعلاج الجروح المؤدية إلى تهتك الأمعاء، واستطاعوا إعادة البصر بقدح العدسة المصابة بالماء الأبيض وغيرها الكثير من العمليات.

واقرأ هذا النص لعلي بن عباس وهو يصف السرطان وعلاجه:

" وأما السرطان فأمره عجب وشفاؤه صعب وهو حقل لم يفلح فيه الطب والتطبيب إلا نادرا، لذلك عليك أن تقلع الورم من جذوره حتى لا تبقى منه أية بقايا أو رواسب ثم تضع في التجويف خرقة مبلله بالخمر لئلا يحصل أي تعفن أو التهاب"(٧٩).

لكن كيف كانوا يقومون بعملياتهم؟ هل استخدموا التخدير العام؟

هناك شواهد ودلائل كثيرة تؤكد استخدامهم للتخدير العام وذلك باستعمال الإسفنجة المخدرة، وذلك بوضع إسفنجة في محلول من الأفيون والحشيش والزؤان وست الحسن ثم تجفف في الشمس وترفع وعند الاستخدام ترطب وتوضع على أنف المريض، الذي يذهب بعدها في سبات عميق يسمح بإجراء العملية (٨٠).

وعالجوا احتباس البول بالقسطرة، والاستسقاء بالبذل (النزح). وأوجدوا الحقنة الشرجية وعالجوا الأمراض العقلية والنفسية بالأفيون وأيضا بالموسيقى.

وأحد أهم طرق المعالجة التي ابتكرها هؤلاء الأطباء العظام وأجادوا استعمالها هو الإيحاء النفسي.

يقول الرازي: "ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبدا بالصحة ويرجيه بها، وإن كان غير واثق بذلك فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس" [٨١].

وهناك قصص كثيرة في هذا المجال نذكر إحداها:

وهي قصة مريض مصاب بالمالنخوليا والذي كان يعتقد أن على رأسه دنا[٨٢]، وأنه لا يفارقه أبدا. ولم يستطع أحد من الأطباء معالجته إلى أن عرضت الحالة على الطبيب أوحد الزمان أبو البركات هبة الله فعالجه، وذلك بأن طلب من أحد مساعديه أن يستعمل خشبة كبيرة فيضرب بها على رأس المريض عن بعد كأنه يريد كسر الدن، وطلب من مساعد آخر أن يرمى دنا بسرعة في نفس الوقت، فتكسر الدن قطعا وأحدث جلبة عظيمة. وعندما رأى المريض ما حصل للدن تحسر لكسرهم إياه ولم يشتك من علته بعد ذلك[٨٣].

وإلى جانب العلاج المحافظ والتدخل الجراحي اهتم أجدادنا بتقوية الروح المعنوية وتقوية الجهاز المناعي في العلاج. يقول "ابن قيم الجوزية":

"وقد علم أن الأرواح متى قويت، وقويت النفس، تعاونا على دفع الداء وقهره"[٨٤].

واسمع معي مقولة أطلقها "ابن سينا" قبل ما يزيد على ألف عام فبقيت في سماء العلاج الطبي خالدة، تعلم الأجيال وترد على من أنكر فضلهم من الغرباء، ومن جحد علمهم من الأحفاد اسمعه وهو يقول:

"علينا أن نعلم أن أحسن العلاجات وأنجعها هي العلاجات التي تقوم على تقوية قوى المريض النفسانية والروحية، وتشجيعه ليحسن مكافحة المرض، وتجميل محيطه وإسماعه ما عذب من الموسيقى وجمعه بالناس الذين يحبهم"(٨٥).

هوامش الفصل الرابع من الباب الأول

١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/٣٤٤

٢- زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٨٧

٣- المصدر السابق نفسه ٣٨٦

٤- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق ٣/٦

٥- المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ٤/٢٦١

٦- زيجريد هونكة: مصدر سابق ص ٣٨٦

٧- Major :A History of Med. Vol 1p.259.

٨- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق ٣/٣-٥

٩- عمر فروخ، وماهر عبد القادر، وحسان حلاق: تاريخ العلوم عند العرب ص ١٤.

١٠- زيجريد هونكة: شمس العرب، ص ٣٣٤

١١- المصدر السابق نفسه ٢٧٠-٢٧١ وأيضاً Major: Op. Cit, vol 1pp.246-247

١٢- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق ٢/٣٥١.

١٣- حسن عبد السلام: بين الصيدلي والعطار ص ١٧.

١٤- ابن سينا: القانون في الطب ١/٣٤٥.

١٥- المصدر السابق نفسه ١/هـ.

١٦- القرع: جمع قرعة وهو إناء متسع الأسفل ضيق الأعلى، يستعمل في تقطير المواد.

١٧- ابن سينا: القانون في الطب، مصدر سابق ١/٢٤.

١٨- زيجريد هونكة: شمس العرب، مصدر سابق ص ٢٥١.

١٩- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق ٢/٣٥٠.

٢٠- دائرة المعارف الإسلامية ج١ هامش الصفحة ٢٠٧.

٢١- المصدر السابق نفس المكان.

٢٢- زيجريد هونكة: شمس العرب مصدر سابق ص ٣١٧-٣١٨.

٢٣- المصدر السابق نفسه ص ٢٨٦.

٢٤- المصدر السابق نفسه ٣١٤.

٢٥- رحاب عكاوي: الموجز في تاريخ الطب عند العرب ص ٢٠٩.

٢٦- الزركلي: الأعلام ٢٩٧/٤.

٢٧- زيجريد هونكة: شمس العرب ص ٢٤٨، وأيضاً: Major: Op. Cit, vol.1 p.238

٢٨- Loc. cit.

٢٩- دائرة المعارف الإسلامية هامش الصفحة ٢٠٥/١.

٣٠- زيجريد هونكة: شمس العرب ص ٢٨٠.

٣١- أحمد عيسى: معجم الأطباء ص ٢٩٣.

٣٢- لمن يريد التوسع في الإجابة على السؤال: هل مارس ابن النفيس التشريح؟ يمكنه الرجوع إلى البحث القيم الذي كتبه الدكتور ماهر عبدالقادر محمد في كتابه دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي.

٣٣- ماهر عبد القادر محمد: دراسات وشخصيات ص ٤١٦.

٣٤- المصدر السابق نفسه ٤١٨.

٣٥- زيجريد هونكة: شمس العرب ص ٢٦٥.

٣٦- المصدر السابق نفسه ص ٣٤٤.

٣٧- المصدر السابق نفسه ص ٣٤٥.

٣٨- سنتحدث عن تدوين الملاحظات السريرية بإسهاب في الباب الثاني والثالث.

٣٩- زيجريد هونكة: المرجع السابق ص ٢٣٣.

٤٠- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢٩٤/٣.

٤١- إسحاق بن علي الرهاوي: أدب الطبيب ص ٢٦٥.

٤٢- المقالة الصلاحية الورقة ٢٣أ، نقلاً عن أبي العلاء صاعد: التشويق الطبي تحقيق مريزن سعيد مريزن ص ٨٥ هامش رقم ١.

٤٣- الرهاوي: أدب الطبيب ص ١٨٤.

٤٤- المرشد للرازي ص ٦٦، نقلا عن الرهاوي: أدب الطبيب، تحقيق مريزن سعيد مريزن ص ١٨٥ هامش رقم ١.

٤٥- أدب الطبيب ص ١٢١.

٤٦- المصدر السابق نفسه ص ١٨٦.

٤٧- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي ص ٨٣.

٤٨- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/٣٥١.

٤٩- ارجع إلى الهامش ٤٥ من هذا الفصل.

٥٠- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٣/٣٥٣.

٥١- الرهاوي: أدب الطبيب ص ١٨٩.

٥٢- الحاوي للرازي ٣/٢٧٩ نقلاً عن الرهاوي: أدب الطبيب، تحقيق مريزن سعيد مريزن ص ١٨٥ هامش رقم ١.

٥٣- ابن سينا: القانون في الطب ١/١٦٧-١٦٨.

٥٤- المصدر السابق نفسه ١/١٦٨.

٥٥- سنتناول موضوع تعليم الطب بإسهاب في الفصل الثالث من الباب الثاني.

٥٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٣/٣٩٦.

٥٧- انظر ابن سينا: القانون في الطب ١/١٦٥-١٧٩.

٥٨- المصدر السابق نفسه ١/١٧٨.

٥٩- الرهاوي: أدب الطبيب ص ٢٢٣-٢٢٤، وأيضاً ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/٧٩-٨٠.

٦٠- الرهاوي: أدب الطبيب ٢٣٠.

٦١- زيجريد هونكة: شمس العرب ص ٢٥٣.

٦٢- المصدر السابق نفسه ص ٢٥٣.

٦٣- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٣/١٧٠-١٧١.

٦٤- زيجريد هونكة: المصدر السابق ص ٢٢٢.

٦٥- المصدر السابق نفسه ص ٢٧٥.

٦٦- المصدر السابق نفسه ص ٢٧٦.

٦٧- المكان نفسه.

٦٨- فروخ: تاريخ العلوم عند العرب ص ١٦٨.

٦٩- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٣/١٤٥.

٧٠- سنتناول علم الصيدلة والأقراباذين بالتفصيل في الفصل السابع من الباب الثاني.

٧١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/٣٥٠.

٧٢- المصدر السابق نفسه ٢/٣٥٣.

٧٣- زيجريد هونكة: شمس العرب ص ٣٢١.

٧٤- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/٢٢١.

٧٥- زيجريد هونكة: شمس العرب ص ٢٨١.

٧٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/٢٦٤.

٧٧- خلف بن عباس الزهراوي: المقالة الثلاثون من التصريف لمن عجز عن التأليف ص ٧٨.

٧٨- المصدر السابق نفسه ص ٧٦.

٧٩- زيجريد هونكة: شمس العرب ص ٢٣٩.

٨٠- المصدر السابق ٢٧٩-٢٨٠.

٨١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/٣٥١.

٨٢- وعاء من الفخار.

٨٣- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/٢٩٧-٢٩٨.

٨٤- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي ص ١٢.

٨٥- زيجريد هونكة: شمس العرب ص ٢٨٢.